

وَحَمْدُ نَقِيرٍ
صِرَاحِ الرُّوحِ

مُحَمَّدُ فَتْحُ اللَّهِ كَوْلِينِ

وَمِنْ نَفْتِ صِرَاحِ الرُّوحِ

ترجمة كتاب

Ruhumuzun Heykelini Dikerken

عن التركية



دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الرابعة: 2008م - 1428هـ

Emniyet Mah. Huzur Sok. No: 5

34676 Üsküdar - İstanbul / Türkiye

Tel: +902163184288 Faks: +902163185220

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة

تليفون وفاكس: +٢٠٢٢٢٦٣١٥٥١

المحمول: +٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨

جمهورية مصر العربية

www.daralnil.com

وَنَحْنُ نَقِيصِرُحِ الرُّوحِ

المؤلف

مُحَمَّدُ فَتْحُ اللَّهِ كُورِينُ

المترجم: عوني عمر لطفى أوغلو

مقدمة المترجم للكتاب

يا غماماً يجوب شرقاً وغرباً
هاطلٌ غَيْثُهُ فحيثُ يُصِيبُ
بأذلاً خَيْرَهُ فما مِن مَلامٍ
كيفما سابقَ الجديبِ الخنْصِيبُ

المترجم: عوني عمر لطفي أوغلو

تقديم

إذ أقدم هذا الكتاب للعالم الجليل محمد فتح الله كولن تستعصي الكلمات عن التعبير عن هياج مشاعري وكوامن أحاسيسي. فعندما عهد إليّ بهذا العمل، اضطرم في القلق والضيق خشية العجز عن الإيفاء بقول يليق حقاً بكتاب أستاذنا المجل. لذلك، أرجوكم أن تحملوا التشتت والظوف في السطح على عجزى واضطراب عاطفتي. فإن وجدتم فيه شيئاً من الخير والجمال فهو راجع إلى انعكاس أنوار الكتاب والأستاذ على كلماتي.

"ونحن نقيم صرح الروح" مقالات رئيسية منشورة في مجلة الأمل الجديد التركية، اختيرت وجمعت في هذا الكتاب. وإن السرور والبشرى لعظيمة في جمع هذه المقالات التي كنت أترقبها -مثلما الكثير من قراء المجلة- بصبر ولهف. لقد كانت فواصل الزمن بين المقالة والأخرى مدداً متفاوتة. لكن المحور الفكري لها واحد وثابت لم يتبدل. فهي تدور حوله وترفده وتغذيه. فليس الكتاب مقالات مبعثرة جمعت بين دفتين، بل سلسلة منضودة بتخطيط متقدم، ومكتوبة بتنسيق فكري هادف، ترسم حدود الإحياء والانبعاث في الفكر والدعوة.

ولا يغيب عن متقصي آثار الشيخ فتح الله كولن وعوالم عقله، الثبات والتناسق في جوهر أفكاره وعدم تناقضها أو تخالفها. بل يشهد تكاملها مع بعضها وتساندها وسيرها في طريق رئيس، شوطاً بعد شوط.

ولقد تكاثرت آثاره، فهي مدرسة متكاملة، وتكثفت على سمات وفي محاور مثل التزعزع والتخريب الذي يعيش فيه العالم الإسلامي عامة،

وإنسان هذا الوطن خاصة، منذ ثلاثة قرون، وغياب النموذج الحقيقي للإسلام وأسباب الغياب، والانبعاث الجديد في العالم الإسلامي، وحضور الإسلام في المستوى العالمي ككرة أخرى، والمخربات والخصال الأساسية للجيل الذي سيحقق هذا الحضور. فمن هذه الزاوية، يشبه ما دججه قلم أستاذنا الفاضل مقطوعة سيمفونية متكاملة ذات أصوات شجية ومنظومة. وإني أرى في الكتاب مجهوداً جديداً للمؤلف، محدداً ومنظماً ومحيطاً، يرفد حركة الإحياء ويعضد أفكاره التي ينادي بها منذ زمن ويسعى في تحقيقها. ولذلك، أصف "ونحن نقيم صرح الروح" بأنه مرجع تحت الطلب لا يستغني عنه جيل الإحياء والانبعاث، أو من يسميهم الأستاذ "ورثة الأرض".

هذا الكتاب يقلب لنا أولاً صفحات العالم الإسلامي لنقرأها ونطلع عليها. فعلم من هذه القراءة أن جغرافية المسلمين تعيش حالاً من العيشية والتناقض. ففي جهة، انحدر نحو هاوية الأزمات والضعف والجهل والخرافة والظلمات والخسران والعزلة والأناية. وفي جهة، تسارع في التوجه إلى الله وجهاد في سبيل الولادة من جديد وظماً للناس إلى اطمئنان وحبور يعُدُّ به الإسلام. الأزمة التي يسميها فضيلة الشيخ "أيام الانقراض"، هي جرح لا يندمل، أصاب العالم الإسلامي في القرون الأخيرة.

إن المسلمين الذين جعلوا الدنيا بُعداً من أبعاد الجنة ربحاً من الدهر، ضحوا بدينهم - وهو مصدر عزهم - لدينهم، وضيّعوا التوازن الدقيق الممتاز بين الكائنات والإنسان والحياة. فتنكروا لتراث ألف سنة، وأحلوا محله نظماً موضوعة حديثة وهزيلة لا تناسب فطرة الإنسان. ولكن من الثابت أن دعوة الانبعاث، في "أيام الانقراض" الطافحة بالانكسارات والأزمات والعواصف، بقيت شرارة في هذه الظلمات، على أمل أن تشتعل لهيباً في يوم آت.

إن العالم الإسلامي كله تَوَاق إلى الانبعاث بعد الموت وإلى الولادة من جديد، من أجل محق الانحرافات الحاضرة وإقامة حياة جديدة وصحيحة. "انبعاث وإحياء يحتضن الحياة كلها، ويستجيب لحاجات أنماط البشر كلهم،

في رحاب الزمان والمكان كُلاً، بالسعة والعالمية التي تسمح بها مرونة النصوص، مع الحفاظ على أصالة الدين".

هذا الكتاب يدعو إلى التوجه نحو الإنسان والحياة والكائنات. بمقرب إسلامي ويشير إلى أن المجتمعات المسلمة التي تتناسى المنطق والفكر والتصور الإسلامي "بمحاجة ماسة ولازمة إلى رعاية مفهوم الإيمان، والنظر الإسلامي، وشعور الإحسان، والعشق والشوق، والمنطق، وطريقة التفكير، وأسلوب التعبير عن الذات، ورعاية المؤسسات والأركان التي تكسبها هذه الخصال، وإرشادها إلى التجدد بكل فئاتها وأصنافها".

ولا بد من "أتمودج إنسان جديد" لتحقيق هذا التحول العالمي، يتحمل سعته الشاسعة وثقله المطرد كسعته. ويسمى الأستاذ هذا الجيل الجديد "ورثة الأرض"، ويصفهم بأنهم "عباد صالحون، حياتهم العلمية منظمة ومنسقة، ثقات في أعمالهم وسلوكهم، أقوياء في المقومات الشخصية فلا تصرعهم الأهواء النفسانية، امتزجت عقولهم بقلوبهم"، فهم ممثلو الروح المحمدية والأخلاق القرآنية.

والكتاب تعريف وتعليل لنهضتنا الإصلاحية التي نقف على أعتابها. نهضة تتحقق في سياق عودة الشعب برمته إلى جذوره الروحية. إن شعبنا الذي نهض لتحقيق الذات أكثر من مرة، جدير بالتغلب على "النفعية الذاتية، والكسل، وحب الشهرة، والأنانية، وطلب الدنيا، وقصر النظر، واللجوء إلى القوة العمياء" وما يشبه هذه الأمراض، واكتساب فضائل مثل "الاستغناء، والشجاعة، ومحو الذات، والاهتمام بموموم الغير، والعلم، والفضيلة، وقابلية التفكير العالمي" ومن ثم تحقيق التحول الكبير. بمحوره القرآني وسجيته الفطرية.

فحين يسرى في أبناء الشعب كله روحُ الإحياء، ينبلج فجرُ الانبعاث بعد الموت، أو النهضة العظمى، ويسترد شعبنا الأمانة التي ضيَّعها منذ سنين طويلة، فيصنع من الدنيا زاوية جنة كما صنع في الماضي.

وهو من وجهة، ينسج من آفاق القابل رؤيا مثالية تستنهض الهمم. ومن وجهة أخرى، يمحّص ويعلل حاضر العالم الإسلامي بمعضلاته وأزماته والعوائق الاجتماعية والتاريخية المعرّقة لتجديد بناء الفكر الإسلامي. ولا يفقد -فضيلته- في خضم ذلك ثقته بهذا الشعب الذي لم تخمد فيه جذوة الانبعاث أبدا. ولا بالأمال "الملئية"⁽¹⁾ التي تشبعت بها روحه.

وبعد تلخيص ملاحظاتي على الكتاب، أعرّج -مع ضعفي وعجزتي- إلى بلاغة الأستاذ وأسلوبه الرصين في كتبه كلها. لقد اشتهر الأستاذ فتح الله كولن بانشداده إلى شعبه ومحركاته الحيوية التاريخية ووقوفه العميق على معطيات الفنون المتنوعة في الأدب والهندسة والموسيقى وغيرها من الفنون التي ارتقت إلى الذرى في مسيرة التاريخ لهذه الأمة العظيمة. ونحن نشهد وَلَهْهُ وعشقه لجذور الأمة الروحية ومحركاتها الأساسية في كل ما كتبه. وهل يجوز عليه غير ذلك، وهو وارث تلك الثقافة والحضارة؟

أما بلاغته ورسانته لسانه التركي، ففيهما ما يذكر بقوة الأمة التركية يوم كانت أمة عظيمة، لها حشمتها وإحاطتها وكرامتها الجامعة المحتوية على عناصر وأجواء كثيرة. فكأن بلاغته ورسانته أسلوبه حلقة في سلسلة تمتد إلى زمان ثراء التركية ورفاهها. فصياغته للتركية -كسبيكة الذهب- أصيلة وغنية، بسلاسة لسانه، وغنى معانيه، وقدرته على تصوير الأشياء والإنسان والكائنات. ولا عجب مادام مستمدا من المحركات الحيوية للثقافة التركية في ذروة ارتقائها. فأسلوبه في التركية مذاق في القوالب القرآنية ومفعم بمؤثرات الحياة الإسلامية ومصطبغ بألوانها الزاهية ومرتبطة بحلقة في سلسلة الأدباء

(1) الملة ومشتقاتها ترد كثيرا في الأدبيات التركية عموماً، كما في كتابات الأستاذ فتح الله كولن، ومعنى الكلمة في التركية غير معناها المتعارف عليها. فهي تستوعب معاني أوسع كالشعب وربما الأمة أو اتباع دين وطائفة. وحين نقول "الملى" نسبة إلى "الملة" فاللفظ يكون مشبعاً في معناه بالدين والتقاليد والموروثات والخصوصية الذاتية العائدة إلى الأمة الإسلامية. فنرجو من القارئ الكريم أن يعذرنا متى ما أوردناها كما هي حتى نوفي بالمدلول الشامل أحياناً، وان يفهمها بهذا المعنى. (المترجم)

الترك وأهل الصنعة العظام. هذا الأسلوب المتوشح بآثار تقاليد التصوف في الأدب، استمرار ودوام للمستوى الرفيع المنتقل إلى أوائل القرن العشرين والمنسب من بين أنامل ممثليه خالد ضياء، ومحمد عاكف، ويحيى كمال، ورفيق خالد، ورشاد نوري، ويعقوب قدرى، وأمثالهم. وأحسب أن هذا محصلة تصديق دقيق وعميق لفضيلة الشيخ بأن حضارة ثرة لا تنقل إلى الزمان القابل إلا بلسان بليغ مقتدر على بيان مضامينها. وأن لفضيلته في التركية تصرفات خاصة به، وتركيبات واشتقاق أوصاف وأسماء. ومن هنا أزعج -أنا الضعيف- أن الحاجة ماسة إلى قاموس بمعاني المفردات التي يستخدمها. ومن يمحص آثاره بحثاً وتدقيقاً، عن دراية باللسان التركي، سيجد تصرفات ذاتية ومفردات ثرية في أسلوبه. وأزعج أن هذا القاموس يدلنا على المستندات والعناصر الأساسية لخزينة الأستاذ الثقافية وعالمه الفكري.

وأختم هذا التقديم بأبيات لمولانا جلال الدين الرومي (مترجمة)، أراها معبرة عن محور هذا الكتاب:

ما أحسن أن تهاجر من أرض كل يوم،
ما أجمل أن تحط في مقام كل يوم،
ما أطيب أن تنحدر، زللاً بلا جمد ولا كدر،
أمس، رحلت نفسي الحبيبة، أمس،
فالكلام كله يرجع إلى أمس،
وينبغي أن نقول شيئاً جديداً الآن.

علي جولاق

إسطنبول / أسكدار

كانون الأول / سنة ١٩٩٧

دنيا في رحم الولادة

يمر العالم الإسلامي كله في عصره القريب الأخير، بأشد أزمة واجهته في تاريخه، من حيث الاعتقاد والأخلاق والنمط الفكري والمعارف والصناعة والعبادات والتقاليد والأوضاع السياسية والاجتماعية.

لقد نجح المسلمون في تأسيس أكمل إدارة، تعجز عنها مدارك التصور الإنساني، لما كانوا زمناً أشد أهل الأديان تمسكاً بالدين، وأقوى الناس التزاماً بالأخلاق، وأسلمهم أعرافاً وتقاليد، وأجدرهم بقيادة الدنيا بسعة أفقهم السياسي والاجتماعي ونظمهم الفكرية. ذلك، بمعايشتهم للدين من غير خلل، وبكمال أخلاقهم، وعقلهم العلمي، وسبقهم الناس في كل عصر. واستطاعوا أن يمدوا سلطة إدارتهم - في ظل الأعمدة الثلاثة: الإلهام والعقل والتجربة- من جبال بيرينة إلى المحيط الهندي، ومن قازان إلى الصومال، ومن وبواتيه⁽¹⁾ إلى سد الصين... وأحيوا الشعوب التي في عهدتهم في هذه المساحة الواسعة، بأنظمة متخيلة في المثاليات، حتى جعلوا الدنيا بُعداً من أبعاد الجنة، وذلك في زمن كانت الدنيا تمر بأحلك العصور ظلمة.

ومن أشد ما يؤلم، أن هذا العالم وقد ابتعد عن المحركات التاريخية والقيم الإسلامية التي رفعت هامته قروناً طويلة، وقع أسيراً في قيود الجهل والانحلال الأخلاقي والخرافة والأهواء البدنية والجسمانية، فأنحدر من هنا إلى مهاوي الظلام والخسران، وأنحدر من هاوية إلى هاوية... مبعثراً، كحبات المسبحة إذا انفرط خيطها، أو كصفحات كتاب انحل عقدها، مهاناً تحت الأقدام... مهزوزاً ومزعزِعاً، كدحه هباء وكفاحه عقيم، مقصوم الظهر بألف تفرق

(1) بيرينة: سلسلة جبال بين فرنسا وإسبانيا. وقازان: عاصمة جمهورية تاتارستان ذات الحكم المحلي في روسيا، والمدينة على نهر الفولغا. وبواتيه مدينة في فرنسا اشتهرت بمعركة بلاط الشهداء. (الترجم)

وتمزق... حائراً حتى البله إذ يغتني أناشيد الحرية وصدوره يتشظى أنيناً في أعظم أنواع الأسر عاراً... أنانياً بلا هوية. أعلن العصيان على الله والرسول متمرداً على الأفكار المحظورة(!) لكنه صار بائساً أشد من البؤس نفسه تنهشه مخالب كثير من الأفكار المحظورة الأخرى... بل مطلق المساس بما وإن كان إيماءً!

لكن مدة الشدّة القاسية الأخيرة هذه لم تدم أمداً، رغماً عن السراق في الخارج، وأكلة السُّحت والحرام في الداخل. فاليوم يخوض المسلمون -وهم خُمس البشرية- كفاح الانبعاث في كل أرض، ويناضلون للخلاص من هذا الأسر اللعين. وإن تعرضهم -في السنين الأخيرة خاصة- كل صباح لمصيبة، وكل مساء لنكبة، أعانهم على قتل حبلهم الروحي وهروعههم إلى الله وشد عزيمة كفاحهم.

ولقد تنفسنا نحن هواء "الحق يعلو ولا يُعلى عليه"^(١) شهيقاً وزفيراً، وفتحنا عيوننا وأغمضناها على ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ٢٨) حتى في أحلك المراحل ظلمة، ذلك بفضل توافق روح الإسلام مع طبع الإنسان وإعانتة على ارتقائه المادي والمعنوي، وسموق ديننا الجليل إلى ذروة لا تطال في الموازنة بين الدنيا والعقبي... ولم نسقط أبداً في اليأس والانكسار. فكيف، والتسارع مطرد في التوجه إلى الإسلام في الناس من كل فئة، وفي دائرة تتسع، من أمريكا إلى آسيا، ومن الدول الاسكندنافية إلى استراليا، حتى صار الإسلام الشغل الشاغل؟

فمع المساعي التي تذهل العقل لمذاهب النصارى المتنوعة ومنظماهم الكثيرة، لم تحظ الكنيسة بعُشر ما حظي به الإسلام من التعلق والاهتمام.

(١) "الإسلام يعلو ولا يُعلى". رواه الدارقطني والضياء في المختارة والروايان عن عائد بن عمر المزني رفعه، والطبراني والبيهقي عن معاذ رفعه، وعلقه البخاري في صحيحه. والمشهور على الألسنة زيادة (على) آخراً، بل هي رواية أحمد. والمشهور أيضاً على الألسنة: الحق يعلو ولا يُعلى عليه (كشف الخفاء ١/١٢٧).

فيختار مئات الآلاف كل سنة الإسلام ديناً ويلجؤون إلى نور القرآن، في القارات كلها، وعلى وعي وعن علم بأنهم سيحاربون بالجوع والفقر.

رجاؤنا الوطيد المنتظر أن نشهد، قريباً - إن لم نقض عهد الوفاء مع الله تعالى - معاني سورة النصر بعظمتها وهيبتها، كرامة أخرى... وأن ترفرف رايات الإيمان والأمل والأمن، فالاطمئنان والحبور، في ظل الإسلام، مرة أخرى... وأن تتعرف البشرية في الأرض كلها على نظام عالمي جديد فوق ما تتخيل، وأن يستفيد كل إنسان، بقدر ما تسع فطرته وأفق فكره، من تلك النسائم المنعشة.

وارثو الأرض

الدنيا تدور، وتدور. وكلما دارت، تنسحب إلى فلكها الأصل. فهل وارثو الأرض الحقيقيون جاهزون لاسترداد ميراثهم الذي أضاعوه، فخطفه غيرهم قبل مدة؟ إن الحق الأول شيء، والحق المستلم بالتمثيل شيء آخر. فالحق إن لم يُمثَل حسب مقاييس قيمه الذاتية، يمكن أن يُسترد في كل وقت، وإن مُنح ابتداءً لأمة معينة وجمَعَ معين... فُيَسْتَرَد منهم، ويُسَلَّم إلى من يكونون الأسبق والأفضل نسبياً في الخير، إلى أن ينشأ الممثلون الحقيقيون.

يقول الله تعالى في الفرقان البديع البيان: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) ولا ينبغي أن يتردد امرؤ في توقع مجيء هذا اليوم، وهو وعد الله المؤكّد. ولن تنحصر هذه الوراثة بالأرض وحدها... ذلك، بأن من يرث الأرض ويحكمها، يحكم عمق الفضاء والسماء أيضاً. إذن هي حاكمة في الكون كذلك. ولما كانت هذه الحاكمية بالنيابة والخلافة، فحيازة حصال التمثيل التي يريدها صاحب السموات والأرض الحق، لازمة وضرورية. بل يصح القول بأن تلك الرؤيا، وذلك الرجاء، يتحقق بقدر إدراك هذه الحصال ومعايشتها.

ولئن حرّم مالكُ الملك الحقُّ الإرثَ عمّن ادعى وراثة الأرض الحقيقية في مرحلة تاريخية كثيفة بالضباب والدخان، لأنهم لم يبدلوا الجهد اللائق بالوراثة السماوية كما ينبغي، فإن الخلاص من هذا الحرمان يبدأ من اللجوء إليه تعالى مجدداً.

لقد وعد الله بإرث الأرض للصالحين من عباده... وهم ممثلو الروحية الحمديّة والأخلاق القرآنية، المنشغلون بالاتحاد والاجتماع، المدركون لأحوال

عصرهم، المسلحون بالعلم والفن، المقيمون لميزان الدنيا والعقي. الحاصل، هو وعد لعقبات الروح وللمعنى الذي يدورون به في مدار نجوم السماء النبوية، وسادتنا الصحابة الكرام. إنه سنة الله... ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: ٤٣) سنة ثابتة "وشريعة فطرية" لن تتغير.

فيلزم لوراثة الأرض السعي الجاد في الصالحات ابتداءً. بمعنى معايشة الدين كما هو في القرآن والسنة، وجعل الإسلام إحياءً للحياة، ثم احتواء علوم العصر وفنونه. ولنتذكر دائماً أن المجتمعات التي لا تلتفت إلى "الشرعية الفطرية" المتجلية من "القدرة" و"الإرادة"، وإلى "مجموعة" القوانين الإلهية الظاهرة من صفة "الكلام" في الكائنات، وإن الأمم والشعوب التي تتعرض إلى التبدل داخلها في حياتها المعنوية، مصيرها إلى الخذلان غداً، مهما كانت ظاهرة اليوم. هو ذا التاريخ -وما أشبهه بمقبرة للأمم المنقرضة- يصرخ عالياً بصوت الحقيقة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) التآكل الروحي والمعنوي في عالم الداخل الذاتي للمجتمع، يوصل إلى انقطاع الأنعم الإلهية عنه. هذه الآية الكريمة تذكّرنا بقاعدة مهمة في الظهور والخذلان، أو العز والذل، وتحدد هذا الفراغ الهائل في مسلمي العصر الحاضر.

ولعلنا نوجز هذا الفراغ بالتآكل الذي أصاب المسلمين جميعاً في بنائهم الداخلي من حيث الحياة القلبية والروحية، وتخلّفهم بمراحل طويلة عن العصر في بنائهم الداخلي، وسواءً علينا في الحاصل إن كانت العلة في هذا التآكل أو التخلّف هي الموانع الخارجية المتتالية منذ قرن أو قرنين، أو هي جهلنا وضعفنا وعجزنا. لكن الثابت هو أن أمة الإسلام تنزف الدم في القرون الأخيرة، وتبدو غير مبالية بمصادر قوتها التي بها انتصبت على قدميها وجعلتها في عزها ووراثة الأرض حقاً وصدقاً.

أرجوكم التفكير ملياً. هل نجراً على القول بأن الذين ادّعوا تمثيل الإسلام في مرحلة تعيسة من حياة شعبنا هم أصحاب حياة قلبية وروحية عميقة

الغور بمقاييس الأوائل؟ وهل نشهد أن مسلمي تلك المرحلة كانوا في توتر وانشداد وحماس من أجل ديمومة نمط الحياة للصحابة الكرام، بله الرغبة إلى حياة كحياة الصحابة؟ كم وجهاً هياً نلقى في تلك المرحلة، يختار أن يموت عزيزاً على أن يعيش ذليلاً كما في القول الذي سار مثلاً: "إما الدولة في الأجماد أو الغربان على الأجساد؟"^(١) وكم روحاً منوراً لم يستسلم أبداً لأعدائنا ولم يحد مطلقاً عن استقامة دربه؟

وإن ضعف الإدارة ورجالها خاصة، في تلك المرحلة، يورث حرقة في الفؤاد وغصة في الحلق. فقد عجزنا عن إنقاذ أنفسنا من العيش تحت الوصاية، والقرآن يحرم علينا الحياة تحت وطأة الوصاية. أنكرنا أننا نتدلل على أعتاب الظالمين الذين يسحقوننا بتحكمهم؟ وهل نزع من أننا استطعنا أن نستجيب - كما يليق بوارثي الأرض - لنداء القرآن بالاستعداد الكامل والتأهب الحذر ضد الأعداء الألداء لديننا ووطننا وفكرنا؟ وتذكروا قَسَم الرب الجليل في القرآن الكريم بالخييل ووسائل القتال في "سورة العاديات"، وأمره الجليل أن ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠).

الصحيح هو أننا ارتكبنا خطأ من أعظم ما لا يغفره التاريخ: ضحينا بالدين في سبيل الدنيا، طمعاً في عمارة دنيانا، وتبنيينا فهما يرحح الدنيا على الدين... فوجدنا أنفسنا مذكَّ أسرى في شبك "الممتنعات"... وضاع الدين وفرت الدنيا... وعاش هذا العالم المجيد-التعيس، مرحلة التفريغ: رفضٌ لميراث مبارك من ألف عام، وتلبيس على الشعب بمبدأ مصطنع، وتركيب الدولة العظيمة وتصميم بنائها على قاعدة هشّة ومتهالفة، وتعريض التاريخ والقوم والأرومة والثقافة الموروثة إلى الازدراء والتزييف، وإلقاء النفس في أحضان أعداء الألف سنة، ثم دس أشد الأفكار إلحاداً بأفحش الألفاظ طراً

(١) مثل تركي يضرب لافتداء الرجل بنفسه من أجل غاية عزيزة، وغيره يستفيد. وربما للإصرار على بلوغ المنى بالمنايا، فإما الموت أو الأرب. (المترجم)

في جسم الوطن، بل شهدنا انهمار الجوائز والمكافآت على من يزخر هذه الأفكار بالشعر والنثر، بل السعي لإحياء الشيوعية في العواطف والأفكار والأخلاق في عالم المسحوقين والضعفاء والمظلومين.

وكما يتدرع أحيانا نفرًا من المصابين بداء الإلحاد، العاجزين والشاكّين حتى في أنفسهم، بدرع أيديولوجية سياسية ورجال ومفاهيم ممنوعة عن المس - وهم يلجأون اليوم خاصة إلى أفح هذه الأساليب وأخزها - لمهاجمة الدين وإلصاق التهم بالمقدسات، فإني أذكر زمانا كان أمثال هؤلاء التعساء يقيئون حقدهم وكرههم وغيظهم، ويناضلون نضال المستميت لكبح صوت الدين والمسلم، أيام رواج الشيوعية والاشتراكية، متكئين على نظم لا أنساب لها. وما أجمل أبيات شاعر النشيد الوطني وأمل الاستقلال الذي صار نشيده أسطورة تروي انبعاث الشعب من جديد، في تصويره - بالصد - هذه المرحلة المظلمة، إذ يُرتقب فيه المسلم والإسلام ويقتفى أثره، ليقتل وتُطفأ شعلته وتُفسد طبائعه:

قد انسلخ الحياء وانحسر، فالعار ملء البوادي والقفار

كم وجه قبيح لم نعرفه اختفى خلف رقيق الستار

فلا وفاء، والعهد عدم، والأمانة لفظ بلا مدلول

والكذب رائج، والخيانة ملتزمة في كل حال، والحق في المجهول

العقل مرتعب جزع، يا رب: كم رهيب هذا الانقلاب

ضاع الدين والإيمان، فالدين خراب والإيمان تراب.^(١)

أبيات مفعمة بحسرة وانكسار تقصم ظهر الشاعر. لكن هذا التسلط القهري والكفري والمزاجي، طوال هذه السنين، عجز عن الاستحواذ تماماً على إرادة هذا الشعب الأصيل، ولم يطفئ أبداً شعله أفكاره، ذات البُعد

(١) من ديوان "الصفحات" للشاعر محمد عاكف، ص ٤٢٠، وهذه ترجمة من التركية. (المترجم)

الأزلي والأبدي. إن هذه الأفكار صارت حسب الظروف جمة تحت الرماد، أو شرارة تقدح وتندلع ناراً بحركة طفيفة، أو مصدراً للنور كافياً لإضاءة الدنيا. لكنها، بعوامل التدبير والتمكين الجاذبة نحو المركز، انكشفت في جوف نواة، وتقلصت، فاستطاعت أن تجتاز أعظم محن العصر لتصل إلى الجليل القادر على أداء العمل، في انتظار أن تغمر الأرض كلها بالنور.

من الممكن أن نقيّم سنين التيه الطويلة بمقياس عذاب متجرع وجهدٍ مبدول... فلنسع مرة أخرى في إثبات أننا وارثو الأرض الحقيقيون بفهم الإسلام، مصدرنا الكافي لانبعاثنا المادي والمعنوي، كما هو في أصله، ثم بالانخراط في جموع عباد الله الصالحين: السالمين المتينين عاطفةً وفكراً وحساً وشعوراً وإرادة، الثابتين القائمين على إعلاء كلمة الله، المنظمين في حياتهم العلمية... الموثوقين في سلوكيات العمل، المستقرين في شخصياتهم، القادرين على دحر نوازعهم النفسانية، الموفقين إلى ارتفاع القلب والعقل.

فعلينا أن نواصل المسير في هذا التوجه المفقود والخط المضيع، بتوفيق الله تعالى ومشيئته.

أثناء استكشافنا خط السير

تعرض الإسلام منذ حرامنا من إرث الأرض إلى معاملة يتفطر لها القلب في برزخ ضعف المنتسبين إليه وتعدي خصومه وعدم إنصافهم. وليس مستغرباً أن يكون الظلم والعدر شعار الطرف الآخر، لكن ضعف المسلم لا يحتمل ولا يطاق. ولعل رسول الله ﷺ يشير إلى هذا، حين يستعيد بالله من جلد الفاجر وعجز التقي.

لا ينكر أن اهتزاز الفكر المسلم والمنطق المسلم، وتباطؤهما، وخمودهما، بل تكدرهما وفسادهما، قد أبعد المسلمين عن الصراط المستقيم ذي الهدف القرآني والفلك النبوي... وحجب ضوء الشمس عن عالمية الإسلام، وعطل أداء وظيفة الدين المحيط بالعالم. ويبدو واضحاً أن إزالة واقعة الانحراف هذه، الزمينة والمستقرة بهذه الدرجة المشهودة في مسلمي القرون الأخيرة، وفي المرشدين المسلمين خاصة، لن يتحقق بافتتاح بضع مدارس، أو عقد بضع مؤتمرات وندوات، ولا بمواعظ ونصائح مسكينة.

إن إزالة هذا الانحراف الهرم، المادّ جذوره إلى عصور خلت، الممدّد بالعلم والتكنولوجيا في عصرنا، بحاجة إلى اكتشاف أنفسنا من جديد، والعثور على ذاتنا، وتعرفنا كرة أخرى على الشعور الإسلامي، والمنطق الإسلامي، وأسلوب محاكمته العقلية...⁽¹⁾ وإلى حمية طويلة وهمة أصيلة وزمان كاف وصبر غير نافذ وأمل حيوي وإرادة صلبة وتأن بعد تأن. وبخلاف هذا، إن لم نجد أسلوبنا الذاتي، ولم نبرح تحبطينا في البحث عن سبل الخروج من الحفرة

(1) المقصود من المحاكمة أننا وردت هي المحاكمة العقلية المنطقية بتمحيص المسألة وفحص الأدلة وإجراء القياس وإعمال الاستنباط لاستحصال النتيجة. (المترجم)

التي سقطنا فيها انطلاقا من مواقع ليست التي وقعنا فيها، فإننا نخدع أنفسنا ونعرض الأجيال القابلة إلى الانكسار مرة أخرى.

لذلك، لا مناص من إحياء الفكر الإسلامي والتصور الإسلامي من أجل الاقتراب من الوجود والحوادث بسياق إسلامي، وتقييم الأشياء كلها بمنطق إسلامي. ويلزم لذلك أولاً: الاستشعار، فالتعقل، بالكائنات والإنسان والحياة بمعلومات سليمة، مناسبة لنفس الأمر، ثابتة المحور في مبدئها وغايتها، متساندة بعضها مع بعض، منفتحة الأجزاء فيما بينها، فكأنها نغم مسبوك من أصوات متنوعة بأسلوب واحد تعبيراً عن طابع معين، أو نقش مركزي تحيط به نقوش أخرى لا بد لها من روابط معنوية تشدها إلى المركز... وثانياً: أن يقود العقل والمحكمة إلى تفهم المناسبات بكلية وجمعية في عموم الأشياء وعموم الوقائع المعروضة لمطالعتنا، بمعان ومحتويات وحكم مشحونة ملء الدنيا، ككتاب لمنظومة حكمة فائضة... أو كأثر فني يعكس ملايين الألوان للشؤون الإلهية فيغرق العيون ببريقه وتألؤه، وبرؤية وبصيرة ثاقبة تبصر من خلال الجزئيات ما وراء ستار الكليات، من غير أن تتعثر بحوادث جزئية ومنفردة منها، وفي الكليات: الامتداد منها إلى أبعد تجمعات الجزئيات والتفرعات. ذلك، كيلا ينقض، أو يُذوي، أو يصاد، قسم من جهدنا لقسم آخر منه، أو جزء من فكرنا لجزء آخر، أو مدة من زماننا لمدة أخرى.

ولا ينبغي أن يظن بهذا الكلام أننا لا ندعو إلى التخصص أو التفرع. فالخير في أن يتخصص أمرؤ في فرع من الفروع، ثم يرتقي إلى ذروة عرش الكمال فيه، ويسعى إلى نيل أرقى المنى في تلك الساحة... لكن مع العناية بمعنى الكل ومحتواه وحاله، بل بمقصده وغايته، في أثناء سعيه وجده. ولا بد أن يتحقق هذا، سواء بالشعور التضامني المشترك، أو بسائق العلم والحس، أو بعمل منسق متكامل، أو بالدهاء العقلي. فلا شبهة ولا شك في حاجتنا الماسة إلى هذا النظر الكلي والشمولي، والتقييم العمومي والموضوعي.

نعم، الحاجة ماسة في أيامنا إلى عقلٍ موضوعي يتصور الأمس واليوم معاً، قادرٍ على التمعن في الكائنات والإنسان والحياة دفعة واحدة، موهوبٍ في المقايسة والمقارنة، منفتحٍ على بُعد أسباب الوجود وعقله، محيطٌ بظهور الأمم والجماعات واضمحلالها، حَكَمٍ فيما يغلط فيه علم الاجتماع وعلم النفس أو يصيب، رقيبٍ على تحوّل أحوال الحضارات بالولادة والموت والتقهقر، مقتدرٍ في التمييز بين الغاية والوسيلة، مالكٍ لسلامة الوجدان واستقامة الفكر، محترمٍ للمقصد، خبيرٍ بحكمة التشريع ومرادٍ صاحب الشريعة، عالمٍ بالأسس المحضة لأحكام الدين، مُسْتَقْبِلٌ للواردات الإلهية.

إن جُنْد الإدراك الذين يؤدون وظائف مثل فتح الآفاق أمام نظامنا الفكري المغلق... ويشعّلون تبدّلنا في المحاكمة العقلية المتقدمة المتعددة عن السماوية بتدويرها في الفلك القرآني... ولا يغفلون أثناء ذلك عن المناسبة المفعمة بالسر بين الكائنات والإنسان والحياة... ويمثلون أمّوذجاً للدين يجسد إحياء الأوامر الدينية وتحقيقها بحرص بالغ، إلى جانب مراعاتهم أصلاً مهماً من أصول الدوام والتمادي في السبل المسلوكة، وهو التوافق مع آفاق صاحب الشريعة في التيسير والمواءمة والمسامحة، حتى تكون سمته فيضان التبشير وترك التنفير... وإنهاء العقم المزمّن منذ قرون بتسليم قوة العلم والتفكير لإمارة الإسلام وتفسيره... وتحويل كل مكان، مدرسة أم معبداً، شارعاً أم مسكناً، إلى مرصد ترصد الحقيقة الكامنة خلف الوجود والحياة والإنسان... وتشغيل منافذ الرؤية المتأملّة في اللانهاية، والتي تمتد زمان تعطلها إلى قرون، بل إلى رده أبعد من قرون... وتقدّم أجنحة حضور الإسلام في مراتب النظر دوماً وفي وحدات الحياة كلها... وتحكيم الحساسية في قضية السبب والنتيجة حسب مبدأ تناسب العلية، والتصرف الرياضي والعقلاني... هؤلاء، هم من يعينوننا في التجدد، ويعلموننا أركان الحضور والوجود الدائم الأبدي.

وقد يستنكر ويكره بعضهم هذا الاهتمام بالأسباب الموفي إلى مباحاتها بنفسها وسوء أدبها. وأنا أشارك في هذا الذهاب والتوجس شيئاً ما. ينبغي على الإنسان أن يقوم بوظيفته وواجبه، ولا يتدخل في لوازم شأن الربوبية. الوظيفة مسئولية تقع علينا، والتوسل بالأسباب هو مراجعة في حكم الدعوات المرفوعة إلى أبواب الحق تعالى. إن قبول هذه المسألة على هذا الوجه من لوازم الصفات الإلهية الجليلة وأنا مخلوقون وهو الخالق. لكن الوجه الآخر للمسألة هو: أن الله تعالى قد أمر بقبول شيء يرجع إلينا، شبيهه بأمر اعتباري،^(١) كداعية إلى إرادته ومشيتته، وجعل لها أهمية، ووعده بتحقيق أعظم الأعمال بناء على هذا المخطط، وحققتها... وقد خلق هذا الشيء الاعتباري وسيلة للإثام والثواب، وجعله أساساً للجزاء عقاباً ومكافأة، وقبلة فاعلاً في إسناد الخير والشر... ومع أن هذا الأمر الاعتباري ليس مُعبراً عن أي قيمة في ذاته، لكنه ﷻ أرجع إليه - باعتبار النتائج المترتبة عليه - فيما فوق قيم. ولو لم يكن كذلك، لتوقفت الحياة تماماً، وسقط الإنسان إلى درك الجماد، وبطل التكليف وذهب كل شيء انجراراً إلى العبث. فلا بد من إيلاء الاهتمام به، ومراعاة متطلباته. فإن الله تعالى يُظهر بُعداً خفياً من أسرار قدرته يجعل ذلك شرطاً عادياً في إعمار الدنيا والعقبى، ووسيلة مرعية وشبيهة بزر سحري لعملية كهربية تضيء العوالم، فيوجد بجرأ في قطرة، وشمساً في ذرة وعالماً في عدم من عدم.

إن حكم الأسباب أو أي شيء آخر لا يجري على الله تعالى، ولا يقيد إرادته ومشيتته الإلهية. الله يحكم كل شيء. الله هو الحاكم الأحد المطلق. ومراعاة الأسباب وَعَدُّ العلل وسائل صغيرة ليس إلاّ بأمر الله تعالى. فنؤمن بهذا الاعتبار بأن الإنسان سيعاقب إن خالف الشريعة الفطرية المعروفة بسنة الله عقاباً معظمه في الدنيا وقسم منه في الآخرة.

(١) المقصود هنا هو الإرادة الجزئية الموكلة إلى الإنسان. وهو أمر اعتباري لا وجود له خارج العقل. (المترجم)

وما أحكم جواب الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "نفرّ من قدر الله إلى قدر الله"،^(١) حينما استشكل تأليف امتناعه عن دخول مدينة انتشر فيها الوباء مع الرضا بالقضاء والتسليم للقدر!

فالأصل أن برجة الجهود والحركة^(٢) حسب النتيجة، وتحويلها إلى غاية المنى، والوقوع تحت عبثها، يورث قلقاً وعذاباً، ويبعد عن توقير الله تعالى - حاشاه- وكأنها عملية مساومة معه. وإن تعطيل الإرادة والاختيار، وانتظار النتيجة بسلسلة من الخوارق في عالم لا يأبه بالاعتاد هو قناع للأحلام والمسكنة. ألا يندرنا القرآن الكريم مراراً وتكراراً ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وأن ما يلقاه الإنسان من خير وشر هو بعمله وفعله وتصرفه؟ ألا يُعلمنا أعظم أمودج لموازنة القلب والعقل والوجدان وصورة فخر الإنسانية وسيد الأنام ﷺ، بالارتباط الوثيق والتناسب الخفي بين السبب والنتيجة والعللة والمعلول والسعي والثمرة حينما يذكرنا قائلاً: "لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم".^(٣)

إن الإسلام، إذ ينظم بالكتاب والسنة حياة الدنيا والعقبى للمؤمن، وحال اعتقاده وعمله، وكيفية عبادته وأخلاقه، يهمس في الوقت نفسه من خلال الأسطر بأشياء أخرى من عالم الامتداد إلى الأبعاد، في أذن دنيا الإنسان الروحية والعقلية والقلبية والوجدانية والحسية، مولداً في أغوار ذاته أنساماً أخروية ومشاعر لاهوتية التلون، ليحييه في كل آن مرة أخرى في بُعد آخر. يحييه، ليجد الإنسان نفسه في موقع خلافة الله تعالى، وحال المداخلة في

(١) البخاري، الطب ٣٠؛ مسلم، السلام ٩٨.

(٢) يستعمل المؤلف كلمة (Action) ويعني بها القضية والدعوة والرسالة والتأثير. وقد ترجمناها حينما وردت إلى "الحركية". وأرجو ملاحظة الجمع بين هذه المعاني في الذهن كلما وردت. (المترجم)

(٣) الترمذي، صفة القيامة ١.

الأشياء، ومقام الفهم والاستقراء لأسرار سنة الله. ثم يرى ويستشعر في كتاب الكائنات النابع من مصدر الإرادة والمشيئة، وبيانه المين المترشح من نبع كلامه تعالى، كأتهما وجهان لواحد... ويوازن تصوّره وفكره، وحياته وتصرفاته، وملاحظات دنياه وأخراه، بالموازنة التي في الأرض والسماء.

نعم، إن الإسلام طرح عناصر منسوجاته المهمة على العقل والوجدان والروح والجسد، فغزل ذاك القماش الزاهي ذا البعد الدنيوي والعقبوي الغائر في الأعماق. ولئن تقدم واحد منهم على غيره في مستوى معين أحياناً، فليس في قدرة أي منهم أن يصور الإسلام وحده أو يمثله أو يُعبّر عنه.

من الممكن أن ينتقل الإسلام الذي هو أعمّ عطية من الخالق للكل، إلى منظومة فعالة بواسطة إحسان آخر مما يُعدّ من أوائل إحساناته، وهو الفهرست المعنوي للوجود كله، المتشكل من العقل والوجدان والروح والجسد واللطائف. وسوف نشرح هذه المسألة في موضعها.

نحو عالم الغد

لم يبرح العالم الإسلامي منذ قرون، الدوران في دائرة مفرغة حائمة حول أغلاطها من غير أن تجد جوهر ذاتها وروحها. فإن تقدمت خطوة إلى الأمام، أعقبتها بتراجع خطوات إلى الوراء أو انحرافات عن سواء السبيل. بل كثيراً ما خلف هذا السير المشؤوم أو الانحراف اللعين الذي طغت خطاياه على صوابه وأغرقت أضراره فوائده، آثاراً غير محمودة على الجهود الذاتية الاجتماعية في تحري سبل العودة إلى الذات، فعرضت الأعمال الطيبة ورجاها إلى التزلزل من الأعماق. هذه الحال تدل على أن عقد الخرز قد انفرط في العالم، وأن دولاب الدول والشعوب يدور خلاف مصالحها.

لذلك، نؤمن بضرورة توجيه العالم الإسلامي جميعاً إلى التجدد بكل أجزائه في فهم الإيمان، وتلقيات الإسلام،^(١) وشعور الإحسان، والعشق والشوق، والمنطق، وطريقة التفكير، وأسلوب الإفادة عن نفسه، بمؤسساته ونظمه التي تكسبه هذه الأحوال.

إن أساس حياتنا المعنوية قائم على الفكر الديني والتصورات الدينية. ولقد حافظنا على وجودنا حتى اليوم بهذا الأساس، وكانت وثباتنا أيضاً منطلقة منه. فإن جردنا أنفسنا منه، فسوف نجد أنفسنا متخلفين ألف سنة إلى الوراء. إن الدين الذي يهدف إلى غايات مثل إضفاء المعنى على الإنسان والكائنات، والانفتاح على الروح الإنسانية والذات، وتحقيق الرغبات الممتدة إلى ما وراء الدُّنْيَى، وإشباع حس الأبد في الوجدان... ليس منحصرأ على العبادات. إنه يحتضن الحياة الفردية والاجتماعية جميعاً... ويتدخل في كل

(١) المقصود من تلقيات الإسلام أو متلقياته: طبيعة فهمه وتداعياته في الإنسان ونوع التصورات بشأنه.
(المترجم)

شيء لنا: عقلي وروحي وقلبي... ويصبغ بصبغته كل تصرف لنا حسب نيتنا، ويسربل بلونه كل شيء.

نعم، كل تصرف للمؤمن الحق قائم على محور العبادة، وكل جهد له ذو بُعد جهادي، وكل حملة وجهد له متلون بالعقبى والرضا. فلا محل في حياته للفصل بين الدنيا والعقبى... ولا برزخ بين قلبه وعقله... وعواطفه ومنطقه مزيج واحد... ولا تتناكر محاكمته العقلية مع إلهاماته. كذا، التجربة والخبرة في عالم فكره سُلِّم من النور يتصل بالعقل، والعلم برج عال بحسابات الفراسة. فهو نسر يخلق إلى اللاهائية دوماً بأحنحة العشق العملاقة في هذا السُّلْم، وحلاجٌ يندف قطن الوجود ندفاً بفطنته في هذا البرج. وحيث لا فراغ في أي زاوية من زوايا هذا الفهم، فلا كلام عن إهمال الإنسان الفردي أو الاجتماعي في هذه المنظومة.

والذين يخلقون صداماً بين الدين وبين العلم والمحاكمة العقلية، هم رؤساء جهلوا روح الدين والعقل. أما إلقاء مسؤولية الصراع بين الفئات الاجتماعية المتنوعة على كاهل الدين، فهو سقوط مريع في الانخداع. لأن الصراع بين التكتلات نابع من الجهل والمنافع الشخصية والمصالح الفتوية. والدين لا يؤيد مثل هذه العواطف والأفكار. ونشهد في الواقع صداماً وصراعاً بين قسم من المتدينين أيضاً. هذا يرجع إلى أن هؤلاء الحاملين لنفس الجذوة الروحية لم يبلغوا الدرجة اللازمة في صدق الإيمان وحفظ الإخلاص... وربما يندحرون أمام عواطفهم أحياناً... لأن الفضيلة المؤمنة تقطع الطريق عن هذا البؤس. والواقع أن سبيل النجاة الوحيد من السقوط في هذا البؤس هو إحياء منظومات الدين كلها وجعلها دم المجتمع ولحمه.

إن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى "بعث ما بعد الموت"، وإصلاح جاد في ملكاته العقلية والروحية والفكرية، وبإفادة دافئة، إلى "إحياء"... إحياء يستجيب لمتطلبات أصناف البشر كلهم ويحتضن الحياة كلها، في كل زمان

ومكان، بقدر السعة والعالمية التي تعد بها مرونة النصوص، ضمن الجد والجهد للحفاظ على صفاء أصل الدين.

لقد سمح هذا النظام المبارك منذ أن شعرنا بظله فوق رؤوسنا -أدام الله حفظه علينا إلى الأبد- بفسحة للولوج من بابهِ مراراً إلى التجديد والإصلاح، فشهدنا الانبعاث مراراً. المذاهب عموماً وفي الأكثر تمثل التجديد في الفقه والحقوق. وصارت الطرق الصوفية سبلاً رئيسة تزين مسالك القلب والروح. وانشغلت الكتابيب والمدارس عموماً -يوم أن كانت لنا- بإضفاء المعنى للوجود والكائنات. أما التجديد والانبعاث المأمول في الحاضر، فيتحقق بالتوفيق بين كل ما ذكرناه وحشدنا جمعاً في مجمع واحد. ويعني هذا، الانسلاخ من القالب إلى اللب، وترك الشكلية والتوجه إلى الجوهر والروح، في كل مسألة. ويعني أيضاً التوجه إلى اليقين في الإيمان، وإلى الإخلاص في العمل، وإلى الإحسان في الحس والفكر...

نعم، ينبغي أن تكون "الكمية" تامة و"النوعية" هدفاً في العبادات، والكلمات وسيلة والروح والصدق أساساً في الدعوات، والسنة مرشدة في التصرفات، والشعور لازماً. وفي كل هذه: الله غاية القصد... الصلاة ليست قياماً وعوداً... ولا الزكاة مالاً مطروحاً تبرئة للذمة لا يعلم أين ذهابه... ولئن صار الصيام جوعاً وعطشاً، فما اختلافه عن الحمية؟ والحج إن لم يجر في فلكه، فما اختلافه عن سياحة بين مدينة وأخرى تكسب بعضهم عملات أجنبية؟ والعبادات قد تصير كلعب الأطفال إن انحصرت في الكم... وصيحات الأدعية الخاوية من الروح شغل الباحث عن عمل الخلق... والحج والعمرة إن صارت مشقة تُحتمل للتسلي يحمل لقب "الحاج" ومناقب الحج، فسوف نخرج في المعاني والمرامي...

إن سبيل الخلاص من كل من هذا الاضمحلال هدرًا في شبك السليبات، هو ملء فراغتنا، وإعلان النفير العام الذي يزيل ضعفنا وينقذنا

من عبودية الجسم والبدن. وإذا ينقذنا، يجهز أطباء الروح والمعنى الذين يقودون القلب والروح إلى مستوى الحياة... أطباء منفتحة قلوبهم على الروح والمعنى، منطلقون في ساحات العلم والذكاء والعرفان والواردات والفيوضات كلها، من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن الرياضيات إلى الأخلاق، ومن الفنون الجميلة إلى التصوف، ومن الكيمياء إلى الروحانية، ومن الفضائيات إلى الأنفسية، ومن الحقوق إلى الفقه، ومن السياسة إلى السير والسلوك. إن هذا الشعب ليس بحاجة إلى هذا وذاك، بل إلى مثل هذا العقل. وكما يلتقي العقل ويحاور كل جهة بعيدة وقريبة في البدن عبر الأعصاب، ويرسل الرسائل إلى أقصى نقاطه ويستلم منها، فإن فريق العقل هذا سيكون في تعاط مع جميع حجات بدن الشعب وجزئاته ويصل إلى جميع الوحدات في المجتمع، ويضع يد تصرفه في جميع أجزائه الحيوية... ويهمس في أذن كل صنف شيئاً من الروح ومن المعنى، مقبلاً من الماضي ومكتسباً عمقا أشد غورا في الحاضر، وممتداً إلى الآتي.

هذا الفريق يسع الجميع. يحتضن الطفل الملتزم والمؤدب في المدارس، كما يحتضن أبناء الوطن السائبين وغير المنضبطين في الأزقة. ويُفرغ في كل صدر إلهامات روحه، ويُعدهم لفائدة المجتمع دهاة مؤهلين بعلوم الغد ومهاراته، ويرفع كل إنسان وكل شريحة إلى الكمالات الإنسانية بالتطهر من لوثات العصر في صفاء مآوي النور ومجمّعات إقامة الطلاب وبيوت الطلبة والمدارس والجامعات والمعابد والتكايا...

هذا الفريق يؤنس وحشية الصحف والمجلات والراديو والتلفزيون ووسائل الإعلام القوية، ليجعلها صوتاً ونفساً للدين والملة من وجهة، ويرشد بها من وجهة أخرى الأحاسيس السوداء والأفكار القائمة والأصوات المدهمة، إلى سبيل الصيرورة الإنسانية.

هذا الفريق ينقذ التربية والتعليم المتغيرة صورة وتوجهاً كل يوم تحت وطأة الضغوط الخارجية والانحرافات الداخلية، من وصاية الأفكار الدخيلة،

فينظّمها بصورة طيّعة لمطالبات الحاضر وحسب السياق التاريخي، ويرفعها لتكون مؤسسة ذات رسالة ببرامجها وخطتها وأسلوبها.

بفضل ذلك، ترتقي الأمة من الفقر الحسي والفكري، والحفظ البيعائي والشكلية، إلى الفكر العلمي الحق، ومن تزكية أنواع الرذائل باسم الفن، إلى الفن والجمال الحق، ومن العادة والإدمان المجهول نشأةً ونسباً، إلى الشعور الأخلاقي النابع من الدين والتاريخ، ومن أقفال الأفكار المتنوعة القابعة في صدورنا والتي أضنتنا وأهككتنا، إلى واحدية الخدمة، التسليم، الشعور، التوكل.

لنضع جانبا بلبله التكوينات الجديدة في العالم. نحن لا نصدّق بولادة شيء جديد من الهندام الرأسمالي القديم، أو أحلام الشيوعية، أو تكسيراتها الاشتراكية، أو هجين الديمقراطية الاجتماعية، أو خرق الليبرالية البالية. الحقيقة هي أنه إن كان تمّ عالمٌ مشرّعُ الأبواب لنظام عالمي جديد، فهو عالماً نحن. وسيتناوله الجيل القادم على أنه عصر نهضتنا نحن.

هذه الولادة الجديدة، ستكسب عالم مشاعرنا وأفكارنا، كذلك مفاهيم فننا وجمالنا، أعماقاً مختلفة اختلافاً شاسعاً عما عليها الآن. وفي ظلّه سنكتشف أذواقنا البديعة ونصل إلى موسيقانا، ونعثر على رومانسيتنا... ويستقر شعبنا في حرز مصان ومتين من كل جهة، سواء في العلم والفن، أو الفكر والأخلاق، فنضمن مستقبله.

شعارنا في هذا المضمار النفير والإقدام، ومصدر قوتنا الإيمان والحقيقة. لقد أحقق دوماً الذين داروا بنا على الأبواب الأخرى على أمل الشفاء من الأدواء بالانقلاط من الإيمان ومن الأخلاق. ولقد نلنا نحن الشرف، وبقينا شرفاء، بفضل الله الذي ارتبطت قلوبنا به، وفي ظل تسليمنا وانتمائنا إلى أمتنا التي رححناها على كل شيء دنيوي وبلادنا التي وُجدنا في صدرها ونشأنا في حضنها. ولا أظن بأنني في حاجة إلى شرح الواقع بعكس الحال!

وستتابع في فصل آخر مواضيع في الانبعاث من جديد.

نحو عالما الذاتي

لقد تكرر الكلام كثيراً عن دعاوى البناء من جديد في عهود وأزمان متعددة وبلاد متنوعة من الأرض وبعناوين مختلفة. ويبقى صدق هذه الدعاوى قابلاً للأخذ والرد ومفتوحاً للنقاش في كل وقت. لكن هنالك عالمٌ يوفي عملية البناء حقها... باحتواء الوجود والأسرار خلف ستار الوجود، والإنسان والحياة جمعاً، حرٌّ وطيِّق من كل القيود المذكورة آنفاً. إن هذا العالم، وباعتبار الأمد الطويل خاصة، هو عالما ودينانا.

وما زالت الأرض بعد الدوار الطويل والتزلزل الشديد، ورغم أنف الأشياء، قادرة على تحقيق هذا التكوين في الحاضر، ومالكة لطاقة تحقق بعثاً جديداً بعد الموت! وإن أمتنا تمتلك تراكماً علمياً تجعلها قادرة على الريادة فيما حولها من التكوينات الجديدة. وزد على ذلك أن قيادتها للأمم أماداً مديدة تركت فرصاً مكتسبة من القبول الكامن تحت الشعور في الشعوب المنقادة لها منذ الزمن الغابر، وهي مقتدرة على استعمالها اليوم. بلى، إنها جاهزة تماماً من وجهة الرمز والتمثيل، لكن عليها أن تستعمل المحركات التاريخية التي تُعد دم هذا الماضي العظيم العريق ولحمه، استعمالاً سليماً وصحيحاً.

كان عالما زمناً يسابق العصر في العلوم الطبيعية والدينية، وفي التصوف والمنطق، وفي تخطيط المدن والجمال، وفي كل مجال ومضمار، بدهاء نفشوا الوجود كالحوارزمي والبيروني وابن سينا والزهراوي، وأساتذة الحقوق كأبي حنيفة والإمام محمد والسرخسي والمرغناني، واستعدادات اجتازت المقاييس الإنسانية وعاشت الحياة في خط الوجدان بتغليب القلب والمنطق كالإمام

الغزالي والرازي ومولانا جلال الدين الرومي والشاه النقشبند، وأبطال المحاكمة والفتنة كالإمام الماتريدي والفتازاني والجرجاني والدواني، وعمالقة الفن كالمعمار خير الدين والمعمار سنان وعطري وده ده أفندي.. وبممكنه بعد زمن العطل العابر أن يجرّك مجدداً كل الأرواح والأدمغة المنورة، فيحقق النهضة العالمية الثانية أو الثالثة. إن الدنيا تستطيع أن تفتح صفحة جديدة بإدراك أذواق البديعيات الحقيقية من خلال نقش الروح والمعنى في كل مكان، والفن المتحري عن اللانهاية في هذا النقش، المتصف بالأخروية، والمترقق، والمتحد مع الأبعاد، في تجديد الاستماع إلى روح الإسلام ومعناه كما في تفسير الوجود مجدداً، وفي أحواء التصوف اللاهوتية العميقة الغور كما في الميتافيزيقا، وفي المحاسبة والمراقبة الإسلامية كما في التيقظ والتمكين اللذين يكسبان الإنسان قيمةً فوق قيم، وفي المدن وتخطيط المدن الذي يمكن عالمنا الذاتي من التنفس ويجعل عالمنا الذاتي يتنفسه كما في القيم الجمالية العائدة للجمهور. نعم، تستطيع الدنيا أن تفتح هذه الصفحة الجديدة، بل الصحيح أنما قدرة عليه على الرغم من أنه يبدو عملاً غير يسير.

إننا لن نقدر على أن تفتح الصفحة الجديدة من غير انتزاع المُتَلَقَّيات (التصورات) والأفكار المنحرفة السائبة في هذا الوطن منذ سنين وسنين، مثل إضناء الحياة الروحية وإذوائها بدرجة كبيرة، وتعطيل عمل أحوالنا الدينية. ووضع الأقفال على ألسنة القلوب بتنسية الوجد والعشق تماماً، وانحباس المثقفين المفكرين والدارسين في قمم المادية الوضعية الكثيفة، وإحلال التشدد محل الصلابة والثبات في الحق، وحتى في طلب الآخرة والجنة، طلبها بنظر دوام السعادة الدنيوية المعتادة!

وليس المقصود من هذا القول أننا عاجزون عن انتزاع اللوثيات اللاصقة بأرواحنا في القرون الأخيرة. بل الإفادة بأن بلوغ برّ الأمان عسير غاية العسر ما لم نتخلص كأمة من أسباب ودواعي انهيارنا وانحلالنا الحقيقية، مثل

الحرص والكسل وطلب الشهرة وشهوة السلطة والأنانية والميل إلى الدنيا وغيرها من الأحاسيس والمشاعر، وتتوجه إلى الحق بما يُعدّ جوهر الإسلام وحقيقته، كالاستغناء والجسارة والحوية والاهتمام بهمّ الآخر والروحانية والربانية، ونُصِفَى بمشاعر الحق ونصب في قلبه. لكن العسر الشديد لا يعني الحال. فما لم تخل الساحة -وهي ليست خالية- من شجعان مخلصين للجوهر والذات، مالكين لإرادة التجديد، قادرين على احتضان العصر، فلا بد أن يتحقق هذا التجدد والتغيير... تجدد وتغيير ذو أبعاد قرآنية وسجايا فطرية... يتحقق بوتيرة تُعجز الذين يصرون على حبس أنفسهم خشية الانفتاح على هذا الفهم أو يصرون على الانغلاق، تعجزهم عن صد التيار. فإن النهضات العالمية التي عرفناها وعلّمنا بها حتى اليوم، كانت ثمرة سعي الدهاء الفردي، لا حملات الكتل البشرية وحركاتها... فقد كانت التجديدات والتغييرات التي بلغت حد الانفجار أحيانا في السنوات المتعاقبة بعد ظهور الإسلام، من آثار عدد من الأرواح الفذة والعقول الذكية الاستثنائية والأفكار الممتازة التي سمقت في العهد الأموي والعباسي، كما كانت الفكرة الغائرة العمق والروح المتعمقة والفطرة البراقة خلف التحرك والتكون "عن المركز" في العهد الإيلخاني والقره خاني والسلجوقي والعثماني. إن المسلك الذي افتتحه هؤلاء الرواد الذين ظهروا بمعنوية عالية في كل مرحلة من المراحل، تحول بعد لأيٍ ومدةٍ إلى مدارس وتيارات تنفخ روح البناء من جديد في الكتل البشرية. فتابع من سار خلفهم طريق أولئك المرشدين الأرواح وتعقبوا درب أفكارهم، وانخسرت الحشود على أثرهم ولجأوا إلى إقليم ضيائهم. فعاش هؤلاء المرشدون العظام مع الحشود وكأنهم القلب والدم منهم. أما في مراحل أفول الأدمغة العظيمة هذه، وغياب مَنْ يشغل فراغهم من بعدهم، فإن الذهول وتفحم الفكر وعقم التجديد أصاب المجتمع بكل أصنافه وطبقاته.

وفي هذه الأثناء، إذ تتحول الأيام إلى الربيع، ويتبع الفجر فجرًا، ينتعش أملنا وانتظارنا. فندعو ربنا تعالى أن يهبنا إرادة مؤيدة بالمشيئة تعيننا في إقامة صرح روحنا، وجعل قلوبنا حضراء كربوع الجنة، وإيصال ألبابنا إلى أسرار حرم الألوهية، وأن يُلهم شعبنا طريق التجدد في خط السير المحمدي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

إن سعينا لتحقيق هذا الأمل وانتظارنا له هو حقنا وواجبنا وضرورة إيماننا. ومن اللوازم أثناء استعمال حقنا والإيفاء بواجبنا أن نراجع ماضينا المجيد باستمرار، ونلجأ إلى قيمنا التي جعلت أمسنا زاحراً بالعظمة. فعندما حقق الغرب هضبة كهذه في مسيره نحو المدنية الحاضرة، التجأ إلى المسيحية واتخذ اليونانية مثلاً وتزواج مع الرومانية. أشباه هذه الأسس مقبولة للحضارات الأخرى في كل زمان. إذن سنلجأ نحن أيضاً إلى ماضينا وجذور معانينا ونقتبس من مثلنا الروحية التي لم يتكرر صفاؤها بتعاقب الزمان. وسنأخذ من إبداعات عصورنا البيضاء التي نراها شريحتنا الزمنية الذهبية ومصدر فخرنا الأبدى، في الفكر الفلسفي كما في الحقيقة الصوفية، وفي طبيعة متلقيات الدين المستقرة كما في بعده الأخلاقي، ونزيد بغزل النقوش على أردية مرفلة تسربل المستقبل. في هذه النقوش يتجاور مولانا جلال الدين الرومي مع التفتازاني، ويسجد يونس أمرّة مع مخدوم قولي، ويضم "فضولي" إلى صدره "عاكف". ويقف الأمير اولوغ تحية لأبي حنيفة، ويجلس الخواجة الدهاني قبالة الإمام الغزالي، ويلقي ابن عربي وردة على ابن سينا، ويفيض الإمام الرباني السرهندي ببشرى بديع الزمان النورسي... يتوحد عماليق الأفكار لهذا الماضي المارد العظيم بقاماتهم العملاقة، فيهمسون في آذاننا طلاس الخلاص والانبعاث.

المأمول أن نكتشف الشعور والفكر والمنهج والفلسفة التي تجمع كل هذه، وأن نجد أسلوبنا السماوي والخالد. من أجل ذلك، أرى أن نعيد النظر

في طرقنا التي نسلكها قبل كل شيء، وأن نجدد إعمارها. فمن الأسس المهمة لنهضتنا إلهام العشق والشوق وبركتهما، والمتانة والرصانة التي توحى بأمان العقل والمنطق، واستقرار وإنسانية الحرية والعودة إلى الذات، وبعدها التعمق والدقة والتجريد، ومحور المنطق، وروح الوحي في فننا وفلسفتنا. ومن ضمانات الثبات على النهج الصحيح في التجدد أن نجعل رضا الله غاية الآمال، والروح أساساً للحركية في جهود الشعور بالواجب، وحب الإنسان وهذا الوطن حرصاً لا يستغنى عنه، والأخلاقية زاداً حيوياً في المسير لا يترك أبداً، والكائنات والإنسان والحياة: كتاباً محفوظاً بالأسرار لا يُكف عن نبشه فصلاً بعد فصل تحت منشور القرآن البلوري، ومصدراً للقوة مهماً لشخصية الإنسان وقيمه البشرية الحقيقية، والقرآن والسنة محوراً للطريق الموصل إلى الهدف والغاية، متناسباً مع حقانية الهدف والغاية ومُقَدَّسَيْتِهِ.

وإن أموراً يمكن أن نسميها بوصفة طبية لخلاصنا، مثل: أن نجعل وطننا وإنساننا مقصودنا ونجهد في تغيير مصيرنا المعكوس، ونحيي أجسادنا بالروح المتشكل من عجين مجتمعنا، ونفتح صفحة تاريخية نقية وجديرة لشعبنا، هي شيء من الأسس لحضارة تفوق المدن الفاضلة ورؤيا التجدد. وسنعرض هذه الأسس بشيء من التفصيل في فصل يأتي.

ونحن نقيم صرح الروح...

سبق أن أشرنا إلى صفات "ورثة الأرض" إجمالاً. ونريد الآن أن نتفصح في ملامحها بشيء أكثر تفصيلاً:

الوصف الأول لوارث الأرض هو الإيمان الكامل. يحدد القرآن الكريم "الإيمان بالله" غاية لخلق الإنسان في أفق المعرفة وروح المحبة وبعْدَ العشق والشوق وتلوّن الخطوط الروحانية. والإنسان مكلف ببناء عالمه الإيماني والتفكري حيناً بمد الدروب من ذاته إلى أعماق الوجود، وحيناً بالتقاط شرائح من الوجود وتقييمها في ذاته. ويعني هذا في الوقت عينه ظهور الحقيقة الإنسانية الكامنة في روحه. فالإنسان لا يستطيع أن يستشعر ذاته، والأعماق في ذاته، ومقاصد الوجود وغاياته، ويطلع على كنه الكائنات والحوادث وما وراء ستار الأشياء، إلا في ضياء الإيمان... وبعد الاطلاع يحيط فهماً بالوجود في أبعاده الذاتية.

إن الكفر نظام مغلق وخانق. ففي نظر الكافر: بدأ الوجود بفوضى، وتطور في الجاهل المخيفة للصدف، وينزلق متسارعاً إلى نهاية رهيبة. وفي هذا السير المتدرج والمنزلق، ليس لنا مكان ضيق، بل ولا موطن قدم فيه نفحة رحمانية ينشرح بها الروح، أو نسيم أمان يحتضن آمالنا الإنسانية.

أما إنسان الإيمان المستشعر بمنشئه وخط حركته، وتوجهاته: إلى أين وإلى ماذا، ووظائفه، ومسؤولياته، فإنه يرى كل شيء نوراً وضياء، ويطأ قدمه من غير قلق أينما يطأ، ويسير نحو هدفه الموجه إليه بلا خوف وفي ثقة... وإذا يسير، يُنقَب خمسين ألف مرة عن الوجود وما وراء ستار الوجود، ويرشح الأشياء والحوادث خمسين ألف مرة في الأنبيق، ويصر على طرُق كل

باب، ويبحث عن وشائج المناسبة مع كل شيء... وحين يقصر ما علمه وما وجدته، يكتفي بالحقائق التي رآها وعرفها في وجه التحقيقات التي استحصلها هو أو غيره حتى ذلك الحين، ثم يواصل المسير.

في إطار هذه الموازين، يُعد سائح الإيمان مكتشفاً لمصدر مهم للقوة. هذه الخزينة والذخيرة التعبوية، العائدة للأبعاد الأخرى، والمرموز لها بـ"لا حول ولا قوة إلا بالله"، لتبلغ من الأهمية موقعاً يلغي حسّ الحاجة إلى مصدر غيره عند من يجوز على هذا المصدر للقوة، وهذا النور. فإنه لا يرى إلا هو سبحانه، ولا يعرف إلا هو، ولا يفر إلا إليه هو، ولا يحيا إلا متوجهاً إليه هو، فيستطيع تحدي كل القوى الدنيوية بقدر توغل معرفته واعتماده على الله، ويعيش في شوق، ولا يقع في التشاؤم والسوداوية حتى في أشدّ المواقف سلبية، مع أمل القدرة على النجاح في كل شيء.

وأكتفي هنا بهذا القدر عن هذا الموضوع محيلاً إلى تراث ضخم من الآثار تعالجه، وفي مقدمتها كليات رسائل النور.

الوصف الثاني للوارث هو العشق الذي يُعد أهم إكسير للحياة في الانبعاث من جديد. إن من يُعمّر ويجهز قلبه بالإيمان بالله ومعرفته، يحس حسب درجته بمحبة عميقة وعشق أصيل لكل البشر، بل لكل الوجود... يحس فيعيش عمره كله وسط حالات المد والجزر للعشق والمواجد والجذبات والانجذابات والأذواق الروحانية التي تختزن الوجود كله جمعاً. وكما في كل مرحلة زمنية، نحن بحاجة في الحاضر إلى أن تفيض القلوب من العشق، وأن تطفح من الشوق، في فهم جديد وطري، لتحقيق انبعاث عظيم. فما من حركة أو حملة باقية باعتبار نتائجها، من غير العشق... وخصوصاً إن كانت الحركة أو الحملة ذات امتدادات إلى العقبى وأبعاد ما وراءها. إن العشق الذي نقدمه في إطار تعيين موقعنا في ثنايا المناسبات والعلائق أمام الله سبحانه، الحاضر الموجود الخلاق... واستشعار الحظوظ من أن وجودنا مخلوق باعتبار

وجودنا ظل ضيائه ووجوده هو... وتَقَبَّلُ كلامه غايةً للخلق، والسعي لتصيدها بلا توان أو وهن، هو مصدر للقوة مكنون بالسر، وسرمد لا ينضب. ولا ينبغي أن يهمل ورثة الأرض هذا المصدر، وأن يَحْيُوهُ جياشاً وفواراً. لقد تعرف الغرب على العشق في أبعاد تلون المادة من خلف الفلاسفة وأجواء الدخان والضباب الفلسفية، فذاق طعمه وعاش الشبهات والتذبذبات على طول الطريق. أما نحن فنتنظر إلى الوجود، ومصدر الوجود، بعدسة الكتاب والسنة، ونحقق حب الخالق الذي نذكي جذوته ولهيبة في قلوبنا، والعشق والحمى، والعلائق التي ترتبط بها مع الوجود كله من أجله هو، باللجوء إلى رحاب موازنة المصدرين، مع الانفتاح على الميتافيزيقا. ذلك بأن منشأ الإنسان، وموقعه في الكائنات، وغاية وجوده، والصراط الذي يسير فيه، ونهاية هذا الصراط في هذين المصدرين، منسجم انسجاماً عجيباً مع فكر الإنسان وحسه وشعوره وتوقعاته، فلا نملك دونه - إذ نحس به- إلا الإعجاب والاندعاش. هاتان المحجتان البيضاوان، هما لأرباب القلوب فوارة العشق والشوق ومنجّم الجذب والانجذاب. فلن يعود خالياً من يراجعهما بصفوة الحس وإذن الاحتياج، ولن يموت أبداً من يلجأ إليهما. والمفيد أن يلجأ اللاجئون بتعمق وإخلاص الإمام الغزالي والإمام الرباني السرهندي والشاه ولي الله الدهلوي وبديع الزمان النورسي، وأن يقتربوا بحماس مولانا جلال الدين الرومي والشيخ غالب ومحمد عاكف، وأن يتوجهوا بالحركية لخالد وعقبة وصلح الدين ومحمد الفاتح وياووز سليم... نعم، وخطوتنا الثانية هي أن نمزج عشقهم وشوقهم الطافح غير المقيد بالأزمة والأمكنة كلها، بأصول عصرنا وأساليبه ووسائله، في بيدر واحد، لنصل إلى روح القرآن الذي لا يحده زمان ولا يلى، وبالتالي إلى ميتافيزيقية كونية.

الوصف الثالث للوارث هو التوجه إلى العلم بميزان العقل والمنطق والشعور. هذا التوجه الذي يشكل جواباً عن تمايل البشر وحيدته في انسياق

البشرية بفرضيات سوداء في مرحلة زمنية معينة، سيكون خطوة مهمة باسم الخلاص الإنساني. ولقد أشار بديع الزمان النورسي إلى أن البشرية تتوجه في آخر الزمان بكل طاقتها إلى العلم والفن... فتستمد كل قوتها من العلم... ويمتلك العلم مرة أخرى الحكم والقوة... وتصير الفصاحة والبلاغة وقوة الإفادة موضوعاً في سبيل قبول الجمهور للعلم، وموضع اهتمام الجميع... ويعني عودة الحياة إلى العلم والبيان.^(١) ولا نرى سبيلاً غير هذا، يسلكنا من أجواء دخان الأوهام وضبابها المحيط ببيتنا، ويوصلنا إلى الحقيقة، بل إلى حقيقة الحقائق. فإن عبورنا لفرغ قرون، وبلوغنا حدّ الإشباع في المعرفة، وإثبات وجودنا وثقتنا بأنفسنا مرة أخرى بتعمير خراب حس الانسحاق المزمّن في شعورنا الباطن، لا بد له من إمرار العلم في منشور الفكر الإسلامي، وتمثيله والإفادة عنه. وقد شهدنا في تاريخنا القريب خللاً ملموساً في الفكر العلمي وترزلاً في توقير رجال العلم يصعب تعميره، بسبب تشتت التوجهات والأهداف حيناً، أو اختلاط المعلومة بالعلم، والعلم بالفلسفة حيناً آخر. واستفاد الأجانب المقيمون في بلادنا من هذا الفراغ فائدة جمة، فافتتحو المدارس بنشاط في كل زاوية من زوايا الوطن، ولقحوا أجيالنا باللقاح الأجنبي من خلال أعشاش التعليم. وتطوعت شريحة منا لتمكين خير أبناء الوطن استعداداً وقابلية، من اشغال مقاعد الدارسة فيها، بل حتى بتقبيل الأيدي والأرجل، ليزيدوا في السرعة المطردة للتغريب. ثم بعد مدة، ضاع الدين وضاع الإيمان، فالدين خراب والإيمان تراب عند هذه الأجيال الغرة المخدوعة. ضاع، فوقعنا كأمة في ابتدال الذات فكراً وتصوراً وفناً وحياة. وهل نعجب من النتيجة، ما دامت هذه المدارس التي سلمناها الأدمغة الطرية بلا توجس أو قلق، تضع في اعتبارها من غير استثناء وفي كل وقت، تقديم الثقافة الأمريكية والأخلاق الفرنسية والعادات والأعراف الإنكليزية، على

(١) انظر الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٢٩٢.

العلم والتفكير العلمي. ولذلك، بدأ شبابنا التسلي بألعاب الماركسية والدوركهمية واللينينية والماوية، منقسمين إلى معسكرات شتى، بدلاً عن اللحاق بالعصر بعلمهم وفنهم وتقنيتهم. فمنهم من واسب نفسه بأحلام الشيوعية ودكتاتورية البروليتاريا، ومنهم من انغرز في عقدة فرويد، ومنهم من ضيَّع عقله في الوجودية مشدوداً إلى سارتر، ومنهم من أسال ماركوس رضابه، ومنهم من أهدر عمره لاهثاً خلف هذيان كامو... لقد عشنا هذا كله في الوطن، وتولى ما يسمى بموائل العلم دور الحاضن لذلك. وفي مرحلة الأزمة هذه، لم تن أصوات القتام وأفواه السواد من تلطيخ اسم الدين وأهل الدين، وتشهير أنواع الجنون الغربي أمام الأنظار. من العسير علينا أن ننسى تلك المرحلة ودماها الرخيصة. إن من هياوا تلك الأرضية ضد إرادة إنساننا ووطننا، سيذكرون دائماً في وجدان الحشد البشري على أنهم مجرمون تاريخياً. والآن، نريد أن ندع مهندسي تلك الأيام السوداء في خلوة مع مساوئهم، وفينا منهم غثيان في أنفسنا وأنين في قلوبنا، وتحدث عن عمال الفكر المشتغلين في بناء مستقبلنا.

نعم، لا بد من تحقيق تجدنا الذاتي في ظل الفكر العلمي الذي نشحن شبابنا به، وبتمازجهم تمازجاً كاملاً بالعلم والفكر، كما فعلنا ذلك قبل الغرب بقرون مديدة. إن القلق المحسوس به في الوجدان العام لسيرنا المنحوس، وخفقان القلوب بسبب العيش تحت الوصاية سنين وسنين، ورد الفعل لدى إنساننا على استغلالنا قرونا، أورثنا اليوم شهقة كشهقة النبي آدم، ونشيجاً كنشيج النبي يونس، وأينناً كأنين أيوب عليهم السلام. لكننا نحس اليوم بانكماش المسافة واقترابنا من نقطة الوصول إلى مسافة خطوات، بدفع هذا الشعور والعقل، وبارشاد تجارب التاريخ.

الوصف الرابع للوارث هو إعادة النظر في ملاحظاته عن الكائنات والإنسان والحياة، وتمييز الصحيح من الخطأ فيها. يميزان دقيق. ونذكر بما يأتي في هذا الشأن:

١- إن الكائنات كتاب أشهره الله تعالى أمام العيون ليراجع باستمرار، والإنسان منشور بلوري مؤهل لرصد الأعماق في الوجود وفهرست شفاف للذئ جميعاً.. والحياة تَرشُحُ هذا الكتاب وهذا الفهرست، وتَمَثُّلُ المعاني في انعكاس صدى البيان الإلهي. وما دامت الكائنات والإنسان والحياة باعتبار تلوناتها أوجهاً متنوعة لحقيقة واحدة -وهي كذلك حقاً- فإن تفريقها عن بعضها وتقطيعها ظلم وازدراء للوجود والإنسان، لما فيه من إخلال بانسجام الحقيقة.

إن قراءة بيان الله الحق سبحانه من صفة الكلام الجليلية، وفهمه، وإطاعته، والانقياد له واجب... فكذلك معرفة الحق تعالى وإدراكه بدلالة الأشياء والحوادث جميعاً، التي صورها سبحانه بعلمه وأوجدتها بقدرته ومشيئته تعالى.. ثم رؤية طرق التوفيق، أساس لا يمكن التخلي عنه. فإن الفرقان العظيم من صفة كلامه هو، روح الوجود كله والمصدر الأوحد لسعادة الدنيا والعقبى. وإن كتاب الكائنات هو جسد تلك الحقيقة، وحركية مهمة مؤثرة في حياة الدنيا مباشرة، وفي حياة العقبى بالوسيلة، باعتبار تمثيلها لفروع العلم المتنوعة واحتوائها عليها. إذن، لإدراك كلا الكتابين وتحويل فهمهما إلى الواقع العملي، ثم نسج الحياة كلها بمقتضى فهمهما: جزاء الحسن، وإلهامهما وغيض البصر عنهما، وحتى لتفسيرهما تفسيراً غير مناسب أو إهمال تحويلهما إلى الواقع المعاش: جزاء السوء.

٢- ينبغي تقييم الإنسان بالتحري عن الأعماق الإنسانية الحقيقية في الشعور والفكر والشخصية. وكذلك تقييمه في نظر الحق تعالى وعند الناس، كامن في تلك الخصوصيات. فإن الخصال الإنسانية السامية وعمق المشاعر والفكر وسلامته الشخصية كبطاقة اعتماد مطلوبة دائماً وفي كل مكان. ومن يكدر إيمانه وإذعانه بأوصاف وأفكار كفرية، ويُثير القلق والشبهة في محيطه بشخصيته، لن يكون مظهراً لتجلي تأييد الحق تعالى وعنايته. وكذلك

لا يمكن أن يحافظ على احترام الناس له وثقتهم به. فإن الحق تعالى، والناس، يقيّمون الإنسان بحصّاله الإنسانية وشخصيته الرفيعة ويكافئونه على ذلك. وبناء عليه، لا يتصور أن يتحقق نجاح عظيم أو الحفاظ على نجاح قد تحقق، على يد أناس فقراء في قيمهم الإنسانية وضعفاء في شخصياتهم، وإن ظهر عليهم مظاهر المؤمنين الصالحين. كما لا يتصور أن يفشل فشلاً ذريعاً أناسٌ يتقدمون خطوات في سلامة شخصياتهم وحصّالهم الإنسانية السامية وإن لم يظهر عليهم مظاهر المسلمين الصالحين. فإن تقدير الله تعالى ومكافأته تنظر إلى الخصال والصفات، وكذلك حُسن قبول البشر يقوم عليها بدرجة ما.

٣- ينبغي أن تكون الوسائل إلى الهدف المشروع والحق، شرعيةً وحقاً. إن السائرين في الخط الإسلامي يتحرّون في كل عمل مشروعية الحق في آمالهم وغاياتهم كلها. والتزام مشروعية الوسائل إلى ذلك الحق أيضاً واجب عليهم. فلا يمكن تحصيل رضا الحق تعالى من غير الإخلاص والصدق الذاتي، ولا يمكن خدمة الإسلام وتوجيه المسلمين إلى مراميه الحقيقية بوسائل شيطانية البتة. ولعلنا نرى حيناً إمكانية ذلك. لكن المستهلك لرصيده من الاعتبار والاحترام في سبيل الباطل، والفاقد لرعاية الحق تعالى والتفات الناس إليه، لن يدوم نجاحه أمداً بعيداً يقيناً.

الوصف الخامس للوارث هو أن يكون حراً في التفكير وموقراً لحرية التفكير. إن التحرر وتذوق حس الحرية عمق مهم لإرادة الإنسان وباب سحري يفتح على أسرار الذات. ومن العسير أن نصف بالإنسان مَنْ لم ينطلق في ذاك العمق ولم يلج من ذاك الباب. ومنذ سنين وسنين ونحن نتلوى المأ في طوق الأسر الخارجي والداخلي الرهيب. ولقد ضيقوا علينا وسلطوا أثقلمهم أنواعاً وألواناً على مشاعرنا وأفكارنا ونحن في طوق الأسر الذي يخنقنا... فدع عنك التجدد والتطور في هذا التحديد للقراءة والتفكير والإحساس والحياة، واسأل إن كان في قدرة الإنسان البقاء بمكّلاته ومواهبه

الإنسانية في هذا الوسط؟ فإن حماية المستوى الإنساني البسيط والخام في هذه الأرضية عسير، فكيف بإنصاج بشر يسمقون إلى العُلَى بروح التجديد ويمدون البصر إلى اللانهايات؟ فلا ننتظر في هذا الوسط إلا أناساً ضعاف الشخصية وأرواحاً هزيلة ضاوية ومشاعر مشلولة. ونعرف من تاريخنا القريب أن الأسرة والشارع ومؤسسات التعليم وأوساط الفنون قد نفخت في أرواحنا الأفكار الشاذة والموازن الفاسدة، فقلبت رأساً على عقب كل شيء، من المادة إلى الروح، ومن الفيزياء إلى الميتافيزيقا. في هذه المرحلة المذكورة، كنا نبدي انحرافاً إذ نفكر، ونخطط لكل شيء على محور الأناية، ولا نحسب حساباً لوجود معتقدات وقناعات أخرى غير معتقداتنا وقناعاتنا، ونلجأ إلى القوة باستمرار كلما سنحت الفرص. وإذ نلجأ إلى القوة، نخلق أنفاس الحق والإرادة والفكر الحر ونجثم على صدور الآخرين. والمؤلم أن هذه الأمور لم تنته بعد، ولا نجزم بانتهائها في المستقبل. لكن الواقع يقتضي -إذ نمضي في طريق التجديد أمة- أن نعيد النظر إلى الحركات التاريخية لألف سنة مضت، وأن نستجوب "التغييرات" و"التحولات" المختلفة المائة وخمسين سنة مضت. هذا ضروري، لأن الأحكام والقرارات تُقَوَّب في الحاضر حسب مقدسات (!) مصطنعة. والقرارات المنبثقة من تحت ثقل الفهم السائد المعلوم معلولة... وغير ولودة... وعاجزة بديهة عن الإعداد للمرحلة المضيفة المأمولة. ولئن أعدت لشيء، فإنها تُعدُّ للتصارع بين الحشود المنحشرة في شباك غرائز الحرص القتالة، والخصام بين الأحزاب، والعراك بين الشعوب، والصدام بين القوات. وإنها اليوم هي سبب تضارب شريحة مع أخرى، وتحول التنوع إلى التخاصم، وحتى الوحشية المشهودة في الأرض! فرما كان العالم يختلف عما عليه الآن اختلافاً بعيداً، لو أن البشر لم يكونوا أنانيين ومنساقين للرغبات وقساة إلى هذه الدرجة.

علينا إذن أن نكون أفسح في حرية الفكر وحرية الإرادة في مسيرتنا نحو
عوامل مختلفة، سواء في سلوكنا مع الآخرين، أو من زاوية أنانيتنا الذاتية
وتمسكنا برغباتنا. فالحاجة ماسة اليوم إلى صدور متسعة تحيط بالتفكير الحر
وتفتح على العلم والبحث العلمي وتستشعر التوافق بين القرآن وسنة الله
على الخط الممتد من الكائنات إلى الحياة. ولن يقتدر على ذلك في هذا
الزمان إلا جماعة تتحمل دعوة مشبعة بالدهاء. وفي الواقع كانت هذه الأمور
العظام تمثل في أفراد دهاة في الماضي. لكن كل شيء اليوم توسع في
التفريعات توسعاً يعجز الفرد الفريد عن حمل العبء، فحلت الشخصية
المعنوية والتشاور والشعور الجمعي محل الدهاء. وهذا هو خلاصة **الخطوة
السادسة** لورثة الأرض.

ولا يمكن إصاق هذا الفهم بالجمتمع الإسلامي في تاريخنا القريب. ذلك لأن
التعليم التقليدي لم يزد على ترداد مسلماتها الثابتة، والمدرسة التقليدية أطلت
على الحياة من حافاتها وأطرافها، والتكية (الزاوية) دفنت نفسها في الميتافيزيقا
تماماً، والثكنة توترت بالقوة وحدها وزجرت بالقوة وحدها. فمن الإجحاف
إذن أن نحمل هذه المؤسسات في تلك المرحلة مسؤولية نمط الحياة.

في تلك المرحلة، هيمن الفكر السكولاستيكي^(١) (Scolastique) على
التعليم التقليدي ولم يتنفس إلا هواءه، وعاشت المدرسة التقليدية مشلولة
لغلق أبوابها بوجه العلم والفكر والحرمان من قوة الإبداع والإنشاء، وسلت
التكية والزاوية نفسها بقراءة المناقب بدلاً عن العشق والشوق، واستحكمت
في ممثلي القوة عقدة إثبات الذات والتذكير بالنفس بصورة متكررة لظنهم
أنهم قد أهملوا... وفي خضم ذلك، انقلب كل شيء رأساً على عقب،
وانقلعت شجرة الأمة لتهوي إلى الأرض. ويبدو أن هذه الزلازل لن تسكن

(١) المقصود هو التمسك بالأصول والأساليب التقليدية والاعتماد على المعاني اللفظية ومدلولات الكلام
الموروثة. (المترجم)

إلى يوم يتهياً فيه السعداء الذين يمهدّ القدر دروبهم لاستخدام هذه الحركات استخداماً أمثل، ولتنفيس الاحتناقات بين القلب والعقل وفتح ممرات الإلهام والتفكير في أعماق الإنسان النفسية.

الوصف السابع للوارث هو الفكر الرياضي. لقد حقق الأوائل في آسيا في الزمن الماضي، ثم الغربيون، نهضتهم بفكر القوانين الرياضية. ولقد كشفت الإنسانية في تاريخها كثيراً من المجاهيل والمغلقات بدنيا الرياضيات المفعمة بالأسرار. فإذا تركنا التصرف المفرط للحروفية جانباً، فإنه لولا الرياضيات لما توضحت المناسبات بين البشر ولا بين الأشياء... فهي - كمصدر نور- تضيء طريقنا في الخط الممتد من الكائنات إلى الحياة، وترينا ما بعد أفق الإنسان، بل أعماق عالم الإمكان العسير التفكير فيه وتحمله، واللقاء بغاياتنا.

لكن العلم بالأشياء المتعلقة بالرياضيات لا يعني أن العالم بها رياضي. الرياضي يجمع بين الرياضيات وقوانينها فكرياً، ويصاحبها دائماً في الطريق الممتد من الفكر الإنساني إلى أعماق الوجود. يصاحبها دائماً من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن المادة إلى الطاقة، ومن الجسد إلى الروح، ومن الشريعة إلى التصوف. إننا مضطرون إلى قبول الأسلوب المزدوج لفهم الوجود فهما شاملاً: وأعني الفكر التصوفي والبحث العلمي. لقد أرهق الغرب نفسه لملء فراغ جوهر لم يعرفه أساساً، فحاول سد الحاجة نسبياً بالالتجاء إلى الروحية (Mysticism). أما نحن، فلسنا بحاجة إلى التفتيش عن شيء أجنبي أو اللجوء إلى أي شيء لعاملنا المتمازج بروح الإسلام على مدى الزمان. إن مصادر طاقنا موجودة في منظومتنا الفكرية والإيمانية. فالمفيد أن نحيط بفهمنا هذا المصدر والروح كما هو في ثرائه الأول... فنشهد عندئذ شيئاً من المناسبات الخفية في الوجود والحركات المنسجمة لهذه المناسبات، ونبلغ إلى تطلع مختلف، وعرفان ذوق مغاير، في النظر إلى كل شيء.

بعد تقديم خلاصة قصيرة عن الفكر الرياضي قد تبدو غامضة وإسرافاً في الكلام، لكنني أثق بدوي أصدائه في المستقبل، أريد أن أنوّه إلى الوصف الثامن وهو فكرنا الفني. لكنني بناء على ملاحظات معينة، أكتفي هنا بقول جولفر: "بعض الأوساط ليست على استعداد حتى الآن للانخراط في هذه المسيرة بمقاييسنا"، فاختتم بهذا التنويه.

الشورى

الشورى وصف حيوي وقاعدة أساسية لربانيي اليوم كما كانت للورثة الأولين. فهي في القرآن أبرز علامات المجتمع المؤمن وأهم خصوصيات الجماعة التي تهب قلبها للإسلام. وتوضع الشورى في القرآن الكريم صفاً واحداً مع الصلاة والإنفاق ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (الشورى: ٣٨) فينبه المولى تعالى إلى أن الشورى تعامل يترادف مع العبادة، ويبين هذه المسألة الحيوية في الأمر الإلهي بالاستجابة لله تعالى وذكر ضرورات الاستجابة ونتيجتها: الصلاة والشورى والإنفاق.

فبهذا الاعتبار، لا يُعدّ المجتمع الذي يهمل الشورى مجتمعاً متكامل الإيمان، كما لا تُعدّ الجماعة التي لا تعمل به جماعة مسلمة بالمعنى الكامل. فالشورى في دين الإسلام أساس حياتي لا بد للرؤساء وللمرؤوسين من إجرائه. فالرؤساء مكلفون بالاستشارة في السياسة والإدارة والتشريع وأمور كثيرة تتعلق بالمجتمع، والمرؤوسون مكلفون ببيان رأيهم وفكرهم فيها للرؤساء.

وأجد فائدة في إيراد ملاحظات عن الشورى. الشورى شرط أساسي لإمكان إقرار الرأي الصائب في مسألة من المسائل. وظهرت كثيراً النتائج الوخيمة والهزيلة للقرارات المتعلقة بالفرد أو المجتمع ما لم يمحّص بآراء الآخرين أو تجريحهم. وإن من ينحصر في رأيه ولا يعتدّ بآراء غيره، مهما كان رفيع الفطرة وعالي الذكاء، بل داهية من الدهاة، يتعرض إلى أخطاء وزلات أكثر مما يتعرض لها رجل آخر متوسط المواهب يفتتح في آرائه بالمشورة. فالإنسان الأعقل هو الأعظم اعتداداً والتزاماً بالمشورة، واستفادة

من أفكار الآخرين. ولا ينجو السذي يكتفي في عمله وبرامجه بأفكاره، أو يسعى لفرضها على غيره، من فقدان قدرة حركية مهمة، وزد على ذلك نفوراً وكرها واستتقلاً يلقاه ممن حوله لا محالة.

فالمشورة هي الشرط الأول لاستحصال امرئ خيرٍ حاصل من كل عمل يعمله، كذلك هي الوسيلة المهمة لاستمداد قدرة تزيد عن قدرته وطاقته أضعافاً مضاعفة.

فينبغي إجراء أوسع استشارة وتحرٍ قبل مباشرة عمل من الأعمال، والجدّ في الأخذ بالأسباب والتدابير، حتى نتجنب الوقوع في تصرفات مضرة تضاعف المصيبة في النتيجة، مثل تجريح القدر أو اتهام الوسط القريب. ولا مفر من الندم وانكسار الخاطر ما لم يُتدبر في عاقبة الأمر ويستشار أهل المعرفة والخبرة قبل العزم على العمل. وكم من عمل خاض فيه من خاض من غير روية، فلم يمضوا فيه غير خطوات، ثم أورتهم الانكسار والانكفاء في أنفسهم، وضعف الخطوة والاعتبار عند غيرهم.

والقاعدة في الإسلام كنظام، أن الشورى من أهم القدرات الحركية لقيامه ودوامه. فهي أهم العناصر في حل المسائل المتعلقة بالفرد والاجتمع، والشعب والدولة، والعلم والمعارف، والاقتصاديات والاجتماعيات، فيما لم يرد فيه نص صريح.

إن هيئة شورى الدولة في الإسلام تتقدم على السلطة التنفيذية وترشدها. وهيئة الشورى في الدولة التركية اليوم تُعد محدودة في الوظيفة وضيقة الساحة في الحركة ومقيّدة قياساً بالشورى في الإسلام.

وإن رئيس الدولة ولي الأمر الأعظم ملزم بأصل الشورى وإن كان مؤيداً من الله ومُعلماً ومُرَبّى بالوحي والإلهام. هكذا كنا من الماضي إلى الحاضر. ولئن وقع إهمال الشورى هنا أو هناك، فإن الشعوب والمجتمعات التي كثيراً ما أجزته بأسماء وعناوين متنوعة لا يستهان بها. ولكن لم يفلح حتى اليوم أي

بمجمع أهمله أو تناساه. وحيث يقول سيدنا ﷺ «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار»^(١) يعلق فلاح الأمة وضمأن مستقبلها بالشورى.

ترد الشورى في القرآن الكريم في آيتين بالتصريح، وفي آيات كثيرة بالتلميح. هاتان الآيتان المصرحتان بالشورى من غير تأويل أو تفسير بأمره سبحانه هما: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ في سورة آل عمران (الآية: ١٥٩) و﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ في سورة الشورى المبنية (الآية: ٣٨). هذا، وفي تسمية السورة التي فيها بيان الشورى بهذا الاسم حكمة بالغة.

فترد الشورى في هذه السورة وصفاً للصحابة الكرام نائلين للمديح، فكان في الآية الكريمة تذكيراً فيه بُعدٌ من الثناء لهؤلاء الذين جعلوا الاستشارة محور أعمالهم وأموالهم. وإن اختيار وصف الشورى من أوصاف الثناء والمديح الكثيرة في الأصحاب الكرام دليل على الأهمية العظمى للمشورة.

وكما يجعل القرآن الكريم الشورى قاعدة لها أهمية عظيمة، كذلك السنة السنية تهتم بها اهتماماً بالغاً، بل تحشد لها النصوص حشداً. فكان سيدنا الرسول ﷺ يستشير كل واحد في كل مسألة ليس فيها نص، رجلاً أو امرأة، شاباً أو شيخاً. ومع التقدم الحاصل في ميادين مختلفة، فلم نبلغ بعد في الشورى إلى ما بلغوه في تلك الأيام.

نعم، كان رسول الله ﷺ يستشير أصحابه في كل أمر، ويستطلع ما يرونه ويفكرون فيه، ويستحصل على موافقة رأيهم العام على كل عمل يخطط له، ويستعمل أحاسيس الوجدان العام ومشاعره وميوله كالبنين المرصوص لتكتسب قراراته قوة خاصة من حيث المقاومة. فقد كان يهيئ مشاركة الجميع روحاً وفكراً في الأعمال التي يبرمج لها، فيحقق مشاريعه بأمتن الحسابات الإحصائية.

(١) الطبراني، المعجم الأوسط ٦/٣٦٥.

لنطلع على مشاهد من حياته السنية ﷺ المتعلقة بهذا الشأن:

حين خرج حضرة سيد الأنام ﷺ إلى "أحد" لقن الأصحاب توصيات ورعى أموراً استراتيجية. ومن هذه الأمور التي أنفذها من غير أن يستلم أدنى إشارة لمخالفة أو اعتراض: وضع الرماة في موضع مرتفع من "أحد"، وتنظيم حال قتالهم للأعداء، وتحذيرهم من ترك مواضعهم مهما آلت إليه مجريات الحرب، ونهيهم عن النزول لاقتسام الغنائم... وتوصيات أخرى. ولكن الأصحاب الكرام وقعوا في خطأ اجتهادي في انتهاء مدة الأمر باعتبار الوقت، مع رفعة فهمهم للطاعة ودقائقها. فصاروا في وضع مخالفة خفية. وواجه سيدنا ﷺ معارضة ضمنية أخرى في مسيرة "أحد". فلو كان غيره في موقعه، وواجهته تلك المعارضات المتتالية، التي أوقعت هذه الأضرار والخسائر، لأزاح آراءهم بظهر كفيه وقال: اذهبوا... عاقبكم الله! لكنه لم يفعل ذلك. بل كان يقرأ عليهم وهم منهمكون في البحث عن المذنب والبريء: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وجمعهم للتشاور ووجهه يقطر دماً بأوحش اعتداء للأعداء سببه أصحابه، وسط أشلاء أحساد الشهداء، وشده الأصحاب وحيرتهم في أنفسهم، حتى توجه بعضهم نحو المدينة في تلك المحنة، غير مبال بما حصل. ولا يكتفي باستشارتهم، بل يبلغهم بأمر الله له بطلب العفو والاستغفار لهم.

وهكذا يظهر رسول الله ﷺ بأنه مأمور بالشورى، مع مضاء حياته السنية في أنوار الوحي، فيذكر الرؤساء بمسئولياتهم، ويفسح السبيل أمام المرؤوسين لتقييم آرائهم، ويرشدهم إلى إعانة الرؤساء، ويحذر هؤلاء من الاستبداد.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه لما نزل الأمر السبحاني: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ عقب غزوة أحد، أفصح بأن الله تعالى ورسوله ﷺ غنيان عن المشورة. لكن الله أرسله رحمة للأمم، وأن من استشار أصاب، ومن تركه ضل. فنفهم أهمية التزام الرؤساء بالشورى من أمر الله تعالى

لنبيه بما مع استغناؤه عن الشورى وانعدام حاجته إليها.
ونعرض عليكم شيئاً من جواهر أحاديث تملأ الدنيا، تشرفت بالصدور
عنه ﷺ:

«ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد».^(١)

«ما شقي عبد قط بمشورة، وما سعد باستغناء برأي».^(٢)

«إن المستشار مؤتمن».^(٣)

«والله ما استشار قوم قط إلا هدوا لأفضل ما بحضرهم».^(٤)

لذلك، اتفق علماء الإسلام على أن الشورى أصل من أصول الإسلام
وحكم يلزم العمل به. وقد نفذ هذا مع الاختلاف في التنفيذ على مدى
الزمان في العهود المتعاقبة وفي مواجهة أوضاع خاصة.

* * *

وبدهي أن الشورى ليست مصدراً تشريعياً تسبق الأوامر الإلهية. نعم،
الشورى أساس لقوانين ونظم، لكنه محدود بمصادره التشريعية الحقيقية.
فالإسلام لا يسمح بالتدخل الإنساني في المسائل التي ورد فيها نص صريح.
ففي هذه المسائل تراجع الشورى لاستشفاف المقاصد التي يعبر عنها النص.
وما عدا ما ورد فيه نص، فهو في مجال الشورى تماماً. وما يقرره الشورى
من نتائج وقرارات في هذه المسائل، مُلزَمة كإلزام النص... ولا يجوز مخالفة
ما يتقرر عن الشورى بعد ذلك، أو سرد الآراء والأفكار المتناقضة معها. فإن
وجد خطأ في قرار الشورى مع اتفاق الجمهور، فيزال الخطأ بالشورى أيضاً.
وصحيح أن نصوص الشورى تفيد العموم في معنى من المعاني، لكنها

(١) الطبراني، المعجم الأوسط، ٦/٣٦٥.

(٢) مسند الشهاب، ٦/٢.

(٣) أبو داود، الأدب ١١٤؛ الترمذي، الزهد ٤٩؛ الأدب ٥٧.

(٤) البخاري، الأدب المفرد، ١/١٠٠.

تخصصت أيضاً بتعلق النصوص بمواضيع معينة، وبعمل رسول الله ﷺ وتصرفه. إن النصوص في الإسلام أبانت مواضيع معدودة تفيد أصولاً كلية وقواعد عمومية، ولم تفصل كثيراً فيما عداها من الأمور المحسوبة من التفرعات. أما المسائل التي لم يرد فيها نص، فهي في مجال الشورى بتمامها ومعروضة على التشاور. فانطلاقاً من وضع الإسلام للمسائل التي وردت فيها أحكام صريحة خارج حدود الشورى، والمسائل التي لم ترد فيها أحكام صريحة داخل حدوده، فإنه يبقى في حال من الأحوال مرتبطاً بالإسلام وموجهاً بالقرآن والسنة وساعياً لتحقيق الغاية المبينة في كتاب الله. ولا شبهة في أن الإسلام يستهدف أول ما يستهدف غايات مثل: تحقيق المساواة بين البشر، ومحاربة الجهل ونشر العلم، ونسج المسائل كلها حول الهوية الإسلامية ومنع تضاد المسلم مع ذاته، وتوجيه إنسان هذا الوطن للحفاظ على منزلته ووقاره في الموازنات الدولية، وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الفرد والمجتمع، وتطوير مشاعر الشعب برمته وجميع أفرادها، في الحب والاحترام والاهتمام بهم الآخر والتضحية ورهافة أحاسيس الفيوضات المادية والمعنوية للحياة من أجل الآخرين، ومراعاة الحفاظ على الموازنة بين الدنيا والآخرة، وتنظيم السياسة الداخلية والخارجية، ومتابعة التطور في العالم، وتجهيز مصادر القوة وتحديثها، وحتى فرّق الحرب النفسية، إلى درجة القدرة على مواجهة العالم متى ما لزم. لم يبرح القادة الكبار ورجال الفكر العظام والفلاسفة العمالقة معالجة مثل هذه المسائل الإنسانية منذ قديم الزمان وحتى الآن. ولقد اهتم رسول الإسلام الجليل ﷺ بهذا الهدف في إطار مسؤوليته التشريعية والتمثيلية في سنوات حياته السنية، وأقام على هذا الأساس حياة البشر وأنشطتهم الثقافية ومساعدتهم وجهودهم ومناسبتهم مع بعضهم البعض، فحقق بهذه الوسيلة الروابط بين مشاعرهم وأفكارهم وعقولهم ومنطقهم وأحاسيسهم وقلوبهم.

* * *

وإن للشورى نتائج تُعدُّها بخصوصياتهما، وقواعد توصل إلى هذه النتائج، من جملتها: رفع مستوى الفكر والمشاركة في المجتمع، والتذكير بأهميته بالرجوع إلى رأيه في كل حادثة، وتشجيعه على توليد الأفكار البديلة، والحفاظ على حضور الشورى وحيويتها من أجل مستقبل الإسلام، وتحقيق مشاركة السواد الأعظم في الإدارة بقدر الإمكان في كل مناسبة، وإدامة حياة الإحساس بمحاسبة الرؤساء متى ما اقتضت الحاجة، وإعاقبة تصرف الرؤساء الاعتيادي وتحديد تصرفهم.

قلنا آنفاً إن الله تعالى قد أثنى على الصحابة الكرام بالآية الكريمة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ بناءً على الأهمية الحيوية للشورى، وإن حكمة البالغة تنطوي في أمر الله تعالى لسيدنا ﷺ باستشارة أصحابه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ والمعركة شارفت على نهايتها، وفي أنقل الساعات شدة، ومع أصحابه الذين كانوا سبب هذه الشدة!

إن أصل الشورى الذي تشرف بالتنزيل في هاتين الآيتين، أصل متوسع المرونة، مُلَبُّ لاحتياجات العصور، مُتَخَطِّ لحدود الزمان. فمهما تغير العالم وتعاقب الزمان، وحتى إن رحل الإنسان إلى الفضاء وعمّر مدناً هناك، فلا حاجة لزيادة شيء على هذين النصين. وفي الحقيقة إن أصول الإسلام وقواعده الأخرى كلها تمتاز بالمرونة نفسها وتتفتح على الكونية عينها... ولقد احتفظت بشبائهما وعملياتها على مرّ الزمان، وستبقى كذلك.

* * *

ومن المفيد أن نذكر بأمور من أسس الشورى، هي:

١- الشورى حق للرؤساء وللمرؤوسين، ولا رجحان حق في استعمال هذا الحق لطرف على الطرف الآخر. وفي أمره تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ دلالة إلى مساواة الطرفين في الشورى. فأمر المسلمين شأن للمسلمين كافة، لذلك يتساوون جميعاً في حق النظر فيها. لكن هذا الحق

يتغير بتغير الزمان والمكان والحال، ويستتبع تغيراً في صورة إجراء الشورى وشكلها.

٢- لما كان الرئيس مكلفاً بالشورى في الشؤون المتعلقة بالمجتمع بموجب الأمر الإلهي: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فإذن يقع تحت طائلة المسؤولية إن لم يعرض هذه الشؤون الداخلة في نطاق التشاور على أهل الرأي. من جهة أخرى، يتحمل المرؤوسون مسؤولية كتف آرائهم إن لم يبدوها متى عرضت عليهم هذه الشؤون للتشاور. بل يعدون مقصرين في أداء حقوق المواطنة إن اكتفوا ببيان الرأي، ولم يجهدوا في الإقناع على الأخذ بالرأي المطروح.

٣- ومن الأسس المهمة: طلب رضا الله تعالى وتحري مصلحة المسلمين في الشورى، والامتناع عن تحريف آراء أهل الشورى عن وجهتها بالشورى والضغط والتهديد. يتفضل رسول الله ﷺ فيقول: "إن المستشار مؤتمن" فمن استشير في شيء فعليه أن يشير وكأنه يشير لنفسه.

٤- قد لا يحصل إجماع في الشورى. فإن لم تتفق الآراء في مسألة إجماعاً، فيعمل برأي الأكثرين وقناعتهم فإن صاحب الشريعة ﷺ يجعل الأكثرية في حكم الإجماع حيث يقول: "يدُّ الله مع الجماعة"^(١) ويقول: «إنَّ أمتي لا تجتمع على ضلالة»^(٢) ويقول أيضاً: "سألت الله ﷻ أن لا يجمع أمتي على ضلالة فأعطانها"^(٣).

ففي بياناته هذه ﷺ، يحظرنا بأن للأكثرية قوة الإجماع، وبلزوم اتباع السواد الأعظم. وفي حياته السنية أمثلة كثيرة على ذلك، منها: تشاوره في أوائل بدر وأحد وأواخرهما.

(١) الترمذي، الفتن ٧.

(٢) ابن ماجه، الفتن ٨.

(٣) المسند للإمام أحمد، ٣٩٦/٦.

٥- لا يجوز مخالفة رأي أو اقتراح بديل له بعد إقراره بالإجماع أو الأكثرية، ما دامت الشورى قد أجريت حسب شروطها. فإظهار الرأي ضد القرار بحجج كصحة الرأي المخالف أو تشييت هامش بالمخالفة على أصل القرار هو إفساد وإثم. فقد خرج رسول الله ﷺ إلى أحد على خلاف اجتهاده، موافقاً لرأي الأكثرية، ولم يبد بياناً من بعده عن رأي الأكثرية مع ثبوت غلطهم، لا في الأول ولا في الآخر، بل ومع إشارة القرآن الكريم إلى احتمال مساءلة أولئك المقربين عن تلك الزلة في أثناء التجهيز لأحد.

٦- تنشغل الشورى أكثر ما ينشغل بحلّ المشكلات القائمة، لا بمقررات حوادث قد تحصل... إن الحياة الإسلامية تبقى مستمرة في ظل النصوص بداهة وطبعاً. أما الوقائع التي تحصل خارج معالجتها أو الخطط والبرامج الضرورية، فتؤخذُ بخصائصها وشروطها، ويحلُّ كل حادث أو برنامج في ظروفه ومجراه.

٧- تجتمع الهيئة المشكّلة للشورى كلما دعت الحاجة، فتبت في المشكلات والمسائل وتنجز الخطط والبرامج، ولا تنفك عن العمل حتى إكماله. وليس في أيدينا نص عن إجراء الشورى في دورات زمنية معينة، ولا إشارة إلى إجراءاتها بأجر ومرتب. ونحن غير ملزمين بالتطبيقات الجارية بعد مرحلة التشريع. والمشاهد أن إجراء الشورى بموظفين من ذوي الرواتب يستجلب معه مشاكل معروفة.

* * *

الكلام عن الشورى يتطلب الكلام عن المستشارين بالضرورة. لما كان اجتماع الناس كلهم على صعيد واحد للتشاور محلاً، فالضرورة الملزمة هو الاكتفاء بزمرة معينة منهم. كذلك، ينبغي أن يمتاز هؤلاء بمؤهلات خاصة بناء على حاجة الشورى إلى العلم والممارسة والاختصاص والخبرة بدرجة كبيرة، حسب المواضيع المطروحة للتشاور. وهم من اصطلاح العلماء على

تسميتهم بأهل الحل والعقد، الكبار المقدمين المقتردين على حل المشكلات. والضرورة تحكم بتواجد أهل الخبرة والاختصاص في المواضيع العلمية والفنية والهندسية المتعددة التي هي من مصالح المسلمين، زيادة على توافر المعاني والروح والعلوم الإسلامية، في الكبار المقدمين من أهل الحل والعقد، وخصوصاً في أيامنا، لتشابك الحياة وتحول كل مشكلة إلى مشكلة عالمية. في هذه المسائل، يمكن الاعتماد على أهل الاختصاصات المتنوعة في الشورى، بمراعاة التوافق مع الدين حسب تدقيق أعلام علماء الإسلام. وكما أن الشورى منطاة بأهل الحل والعقد، فإن شكل إجرائها بتغير الزمان والأحوال مناط بهم أيضاً. فنجد حينما نقرأ أوراق التاريخ تنوعاً في تنفيذ الشورى على مر العصور وتغير الأحوال. فهي تُجرى في دائرة ضيقة تارة، وفي دائرة أوسع تارة، ولا تتجاوز دائرة المدنيين مرة، وتفتح أبوابها لأرباب السيف وأرباب القلم مرة أخرى، في أوضاع متنوعة بتقلب عصور التاريخ. وليس ذلك بسبب تعرض هذا الأصل إلى التغيير، بل بسبب المرونة والعالمية التي تجعل الشورى قابلة للتطبيق في كل عصر ومكان.

ومهما تغيرت أشكال إجراء الشورى حسب الزمان والمكان والأحوال، فإن اتصاف الكبار المقدمين بالعلم والعدالة والدراية والنظر والخبرة والحكمة والفراسة ثابت لا يتغير. العدالة هي أداء الفرائض واتباع المحرمات وتجنب ما يناقض القيم الإنسانية. والعلم هو الدراية والخبرة في الدين والإدارة والسياسة والفن. ولا يلزم أن يكون الفرد نفسه متخصصاً في فروع العلم المتنوعة، لكن اللازم أن تكون الشخصية المعنوية لهيئة الشورى متفتحة على كل هذه المواضيع. ولا مندوحة في الرجوع إلى أهل الدراية من غير علماء الإسلام في الموضوعات المعتمدة على النظر والخبرة. وكما قد تحمل الحكمة في دلالتها ومعناها على العلم والحلم ومعنى النبوة، كذلك تصرف إلى الاطلاع على ما خلف ستار الأشياء والنظر والشعور بالأمور الغائبة عن الناس بنور الفراسة، والقدرة والقابلية والفظانة في حل المعضلات الفردية

والاجتماعية. فأهلها قليل ووزنها ثقيل وتحظى في كل زمان بالتوقير والقبول.

* * *

وينبغي التوقف ملياً عند اهتمام سيدنا النبي ﷺ في حياته السنية كلها بالشورى، والاحترام لرأي كل امرئ مهما كان سنناً وعقلاً. فكان ﷺ يرجع إلى آراء الآخرين في كل وقت... ويستأنس بنظرهم ويتحرى عن أقوم السبل لتأسيس خططه وبرامجه على أرض صلبة. فمرة يستطلع نظر أهل الرأي فرادى، ومرة يجمعهم معاً ليسند الشورى بالشعور الجماعي. وهذه نماذج من سيرته تنير المسألة:

١- في حادث الإفك: استشار سيدنا ﷺ علياً وعمر وزينب بنت ححش وبريرة وغيرهم من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. فأشار علي ﷺ برأي يذهب فيه إلى التفريغ عن كربة سيدنا ﷺ. وتوقف عمر وزينب وبريرة وكثير من الذوات المباركة رضوان الله عليهم عند طهارة وزكاة وسمو أمنا عائشة رضي الله عنها. وقد رويت في مشورة عمر ﷺ محاورة لطيفة وإن انتقد سندها. فقد سأل رسول الله ﷺ عما يراه في أمنا عائشة رضي الله عنهما. فأكد عمر طهارتهما وزكاهما. فلما سأله سيدنا عن مستند حكمه هذا أجاب مذكراً بأنه كان عليه الصلاة والسلام يصلي بهم مرة، فخلع نعله أثناء الصلاة. فلما سُئل عن سبب خلع النعل أثناء الصلاة رد بأن جبريل ﷺ أنبأه بلوثة نجاسة في النعل. فإن كان الله ينبي عن لوثة نجاسة في نعل رسول الله ﷺ، فكيف يعقل أن لا ينبي عن شيء يلحق بزوجه ﷺ؟! ولئن تعلق أصل الرواية هذه بشباك موازين الجرح والتعديل، فالعبرة لا تناقش.

٢- في غزوة بدر استشار الرسول ﷺ المهاجرين والأنصار. فتكلم المقداد ﷺ عن المهاجرين، وسعد بن معاذ عن الأنصار كلاماً يقرب بعضه

من بعض في نصره رسول الله ﷺ فيما يراه، مفعماً بالإيمان والحماس والتسليم له. فوجها جماعتهما إلى تأييد القرارات المتخذة وإنفاذها. فهناك يجعل رسول الله ﷺ عموم الناس أصحاباً لقرارات حيوية ويستنصر بالوجدان الاجتماعي إلى جانبه.

٣- وفي بدر أيضاً استشار ﷺ حباب بن منذر والأصحاب عن المنزل الذي ينزله جيش الإسلام وفي أي واد يلقي العدو، وأقر قرارات أنفذاها الجيش المسلم، فتغلب على قوة العدو البالغة ثلاثة أضعاف المسلمين أو أربعة أضعافهم في حملة واحدة، عاد بعدها إلى المدينة تحذوه أناشيد النصر.

٤- وفي وقعة الأحزاب: استشار ﷺ الأصحاب الكرام، فمال إلى رأي سلمان الفارسي رضي الله عنهم أجمعين، بحفر خندق حيث يظن دخول الأعداء منه إلى المدينة. فكان أ نموذجاً للأهمية التي يوليها للشورى.

٥- في صلح الحديبية: اهتم بالشورى اهتماماً بالغاً، فاستطلع رأي الجمع الكثير، وبعده استشار أمنا أم سلمة، ثم أبان عن نهج واستراتيجية حسب الآراء والأفكار التي سارت في استقامة ميوله الذاتية، فغيّر هزيمة لا مفر منها إلى نصر مؤزر في عودته إلى المدينة.

إن التحري في حياته السنية ﷺ يظهر أمام النظر الشورى في كل مسألة أو معضلة لم ينزل فيها وحي، والأخذ بما بعد العرض على الوجدان الاجتماعي. وليست مجالس الشورى في دول الإسلام المتعددة بعد ذلك، إلا صوراً مبسطة للشورى الأولى، وهيئتها الأولى.

الحركية والفكر

يمكن تلخيص خط كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإن وجودنا بوجهه الحقيقي يمر عبر الحركية والفكر... حركية وفكر يغيران الذات والآخرين. ومن وجهة أخرى، يبدو كل وجود وكأنه حاصل حركة ومجموعة أنظمة، وبقاؤه مرتبط بالحركة وبتلك الأنظمة.

وإن أهم شيء وأشدّه ضرورة في حياتنا هو الحركية. فمن الضروري أن نتحرك على الدوام في ظروف قاهرة نضع أنفسنا تحت ثقلها بأنفسنا، لنحمل فوق ظهورنا واجبات ونفتح صدورنا أمام معضلات، الحركية المستمرة والفكر المستمر، ومهما ضحينا في هذا السبيل. فإن لم نتحرك نحن، فسندخل في تأثير الدوامات الفكرية والبرنامجية لأمواج هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر إلى تمثل فصول حركاتهم.

إن السكون الدائم يعني إهمال التدخل فيما يحدث حولنا، وترك المشاركة في التكوينات المحيطة بنا، والاستسلام للذوبان الذاتي رغماً عن أنفسنا كقطعة جليد سقطت في الماء. وتعاجزنا عن حماية جزئياتنا الذاتية في هذا الذوبان، يعني التسليم لأي تكوين أو حادث يناقض ذاتنا ويضاد جوهرنا. ينبغي على الذين يبرمجون لبقاء الذات أن يطلبوه بكل رغباتهم وميوهم وقلوبهم ووجدانهم وحركاتهم وأفكارهم، لأن حضور الوجود يقتضي توتراً تاماً في الجوهر الإنساني. نعم، يقتضي الوجود بداية، ثم إدامة الوجود، ذراع الإنسان وجناحه وقلبه ورأسه. ونحن إن لم نضح منذ الآن بقلوبنا ورؤوسنا من أجل وجودنا في الغد، فسيطلبها منا الآخرون بوقاحة في مكان وزمان لا نفع لنا فيه قطعاً.

إن أهم مميزات الحركية الإسلامية والفكر الإسلامي هو: أن يكون

وجودنا ذاتنا، وأن نجعل مطالبنا مطالب العالم ورغباته، ثم نجد مجرى حركة لنا في عموم الوجود ونسبيل بذاتنا في مجرانا الخاص ضمن مجريات عموم الكائنات، (ويعني الحفاظ على خططنا الخاص إذ نتكامل مع الكائنات كلها). ومن لا يرتبط باعتبار عالمه الخاص بعموم الوجود، ولا يحس بعلاقاته مع الكائنات، وينكفي في روابط مطالبه الفردية والجزئية في مواجهة الحقائق الشاملة للعالم، فإنه يقطع أواصر ذاته عن الوجود كله، ويجردها، ويسقطها في حبس الأناية القاتل. ولا شبهة في أن الباعث على انقطاع الإنسان عن الوجود وبقائه وحيداً بذاته، هو: الشهوات البدنية والصراعات الواقعة في أطراف الجسمانية، وكل سلوان فارغ الفحوى وذو بُعد وهمي، يرجع في جذوره إلى تلك الشهوات البدنية والصراعات الجسمانية. إن دنيا رجل الحركية والفكر الحقيقي، وسعاده في دنياه، ذات تلونات علمية الشمول مؤطرة بالأبد. فكأن دنياه لا بداية لها ولا نهاية، أو أنها تتجاوز تصوراتنا. ولذلك، نتذكر أمثال أولئك حينما نقول "الإنسان السعيد". وهل تسمى "سعادة" بحق سعادة لها نهاية أو بداية؟

إن الحركية - من مقترب أفضل - هو احتضان الإنسان للوجود كله بأصدق وأخلص القرارات، والتدقيق فيه، والسير من خلال المعابر التي فيه إلى اللانهاية، ثم إحلال دنياه في فلك غاية الخلقة الحقيقية مستخدماً الطاقة الكلية لذكائه وإرادته بالسر والقوة التي اكتسبهما من اللامتناهي.

إن الفكر عمل حركي داخلي. فالفكر المنظم والهادف هو التساؤل من الكائنات بذاتها عن المحاهيل التي تجاهنا في وتيرة الوجود، والاستماع إلى حواجها عنها. أو بتصريح آخر: فعالية الشعور الباحث عن الحقيقة في لسان كل شيء وفي كل مكان، بتأسيس قرابة بين ذاته والوجود كله.

إن روح الإنسان يلتف ويتألف مع العالم بالفكر وفي ظل الفكر، فيتعمق باستمرار في ذاته وداخل نفسه.. ويمزق قوالب العقل المعاش الضيقة ليفيض خارجاً، ويتحرر من الأوهام المنسلة إلى أغوار الروح.. يتحرر، فيوائم

الحقائق التي لا تُزيغ ولا تُضل. وبعبارة أخرى، الفكر هو تفرغ داخل الإنسان من أجل أن يتسع المكان للتجارب الميتافيزيقية في أعماق داخله بالذات. هذا هو أول مدارج الفكر. وأما المدرج الأخير في ذاك السلم فهو الفكر المتحرك.

إن حركية حياتنا الدعوية والفكرية هي حياتنا الروحية.. في حال لا يمكن به فصل حياتنا الروحية عن فكرنا الديني. فقد تحقق كل صراع من أجل الوجود والحضور، خاصة شعبنا، باللجوء إلى المعنى والروح الإسلامية.. وظهر بارزا بالأعماق التي يختزنها في ذاته كلما توجه إلى الإسلام، كما يتسامق البذر إلى السنبلة متى ما استقر في صدر التراب، وكما يتفتح البرعم حين يستقبل النور. هذا التوجه وبلوغ الذات، يحقق تنامياً وتوسعاً في الإمكانات المكونة في كنهه، وضماناً لوجوده وبقائه. وكما يتحقق بالعبادة والذكر والفكر تقاسم القلب والروح لمستوى الحياة في عالمه الداخلي الذاتي، فإن احتضانه للوجود كله، واستماعه إليه "هو" في وجيب نبضاته، وإحساسه به "هو" في كل كلية لعقله، يرتبط بشعور العبادة وجهد الذكر والفكر عنده. فمن البديهية أن كل تصرف للمؤمن الحقيقي عبادة، وكل فكر منه مراقبة، وكل كلام له مناجاةً وملحمةً معرفة، وكل مشاهدة منه للوجود تطع وتديق، ثم كل مناسبة بأهل وطنه شفقةً رحمانية. وإن بلوغ هذا المعيار من الرحمانية مرتبط بالانفتاح على الأحاسيس، فالمنطق والحاكمة، ثم من المنطق والحاكمة إلى الإلهام فالواردات الإلهية. وبإفادة أخرى، من العسير الارتقاء إلى هذه الذروة ما لم تمر التجربة من مصفاة العقل، وما لم يُسلم العقل نفسه للفطنة العظمى وما لم يقع المنطق في حال الحب عينه، وما لم ينقلب الحب أيضاً إلى العشق الإلهي، فإن تحقق، فهذا النظر يكون العلم بُعداً من أبعاد الدين وخادماً له، والعقل طيف نور يصل به الإلهام أينما يشاء، والمكتسبات التجريبية منشوراً يعكس روح الوجود... ويصدق كل شيء بصوت أناشيد المعرفة والمحبة والذوق الروحاني.

ولئن كان إنساننا -ببعض جماعاته- يحمل المشاعر والفكر بعينه، ويتقاسم -أو هو في وضع تقاسم- الحالة النفسية بعينها، ثم لا يتصرف تصرفاً إيجابياً بقدر ما ينبغي ورغماً عن هذه المفاصل المشتركة الواسعة، بل قد يقع أحياناً في انحرافات وسلبيات، فالجدير هو أن ينبش عن السبب في غياب الإيمان بمعناه الحقيقي. فتصرفات المؤمن الحق إيمانية التلون دوماً، وحركاته تدور في فلك الفكر أبداً، مهما كان القلب الذي يحصره، ومهما كانت المضادات التي يسحب إليها.

لذلك، ينبغي أن يستشعر وارثو الأرض الذين يخططون لإقامة عالم المستقبل، نوع العالم الذي يريدون إقامته، ونوع الجواهر اللازم استعمالها في إعمار هذا العالم.. حتى لا يضطروا هم بأنفسهم إلى هدم ما بنوه بأيديهم من قبل. إن جذور المعنى وأصول الأسس لألف سنة من حياتنا -نحن- معلومة ومعروفة. وعلى مهندسي مستقبل الضياء أن يجهدوا في استخدام قوتهم الفكرية -إلى جانب دوافعهم الحركية- من أجل أن تنصت الحركات التاريخية التي ننشئ بها حياتنا الدينية والمالية إلى صوت الإسلام كرة أخرى، وتلتقط زاوية نظره وتجس نبضه وتستمع إلى وجيبه، بالاستفادة القصوى من المرونة والامتداد العميق والعالمية في إعلاء بناء هذه الحركات مع الحفاظ على الكتاب والسنة وصوافي اجتهادات السلف الصالح، وحسب مدارك العصر وأسلوبه. ذلك، حتى لا يعيشوا حياة الرزخ في طريق الانبعاث بعد الموت! وكل هذا يرتبط أولاً وقبل كل شيء بالابتعاد عن أثقال النفسانية ودوافعها كافة، والانفتاح على الروحانية، والنظر إلى الدنيا والعلم بها كصالة انتظار إلى الأخرى، وبإفادة أخرى، يتحقق هذا بتعميق الكمية في عباداتنا إلى النوعية، وبإطلاق النقص الحاصل في رياضية الأوراد والأذكار إلى الآفاق اللامتناهية بالنية والخلوصية، وبالمعرفة والاعتبار واليقين في دعواتنا ومناجاتنا وبثنا إلى الذات الإلهية الأقرب إلينا من أنفسنا. ولا يعي هذا المعنى إلا الذين يحسون الصلاة كالطائف في المعراج، ويستلذون من أداء الزكاة كحافظ

الوديعة أو موظف التوزيع، ويعيشون الحج كندوة عالمية لتداول معضلات العالم الإسلامي، وفي أرضية يرصدون فيها نورانية ومهابة الروح والقلب والأبعاد الأخروية.

إن الشعور بكل هذه والإحساس بها، فمعاشتها في الحياة، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأطباء المعنويات القادرين على تشخيص بؤسنا الداخلي والخارجي ومداواته، ومرشدين صادقين مشدودين إلى الأخرويات من غير انقطاع. أولئك المرشدون الذين يمتد عالمهم الفكري من المادة إلى المعنى، ومن الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن الفلسفة إلى التصوف. فهؤلاء كانوا وراء أيام العمران المديدة حتى اليوم، وسيكون هؤلاء ممثلين لحركات الإعمار والإحياء الآتية غداً. وستحقق هذا التمثيل باستنباط نظريات حقوقية جديدة من مصدري الكتاب والسنة لمعالجة المستجدات والتوقعات المستقبلية، وترزين أفكارهم بآراء العالم الجديد، وتطوير متلقيات فنية طازجة تلائم عالمية الإسلام وتركز روح الملة وشعورها في بؤر الإسلام وترتبط بأحاسيس التجريد، وعجن ثقافتنا الذاتية المستوعبة للدين والدنيا والموروث من خزائن ألف سنة متصلة. فإن تمثيلاً في هذا المستوى لقادر في زمن قصير على تحقيق تصدرا للأمام الأخرى في العلم والفلسفة والفن وحياتنا الدينية، وتقويم وحدات الحياة كلها على الطريقة المثلى، وجعل أبنائنا المتشردين المنفلتين في الشوارع -سواء الدارسين منهم أو الأميين- رجال الغد في الفكر والصناعة والمعرفة والفن. فتنفس الأرزقة والشوارع هواء العرفان وكأنها أركان المدارس، وتصير السجون أو كاراً للعلم، وترزين الحمائل البيوت كزوايا الجنة. وفي كل مكان يسير الدين مع العلم يداً بيد، وينشر احتضان الإيمان والعقل ثماره في كل صوب، وينبت ويزدهي المستقبل في صدر الأماني والآمال والعزم بألوان وأفنان لا يضاهيها خيال "المدن الفاضلة"، وتنتشر التلفزيونات والراديوات والصحف والمجلات في جو الفضاء الفيوضات والبركة والنور، ويرتشف الكوثر كل قلب سائح في ربيع الجنة هذا ما خلا الذي كالرميم المتخلف من التاريخ.

سيولد هذا التكون الجديد من قيمنا التاريخية وحضارتنا وثقافتنا ورومانسيتنا... وستظهر هذه الحركة من الحالة الروحية لعصور مستمرة تحت الغبن والقهر والظلم من جهة، ومن جهة أخرى، من حماسة قلبنا المتشبع بالإيمان والمتحفز دوماً والمستعد للانطلاق في كل آن.

إن تحقيق هذه الرسالة الحيوية مرتبط قبل كل شيء بتحريك ديبب الأرواح الصدئة في هذه الأرضية الصدئة. ويبدو أن المجهود الدؤوب منذ خمسين أو ستين سنة قد نجح في زحزحة الصعاب. فيمكننا أن نثن مع الشاعر المُعذَّب، إذ يقول: "اضرب بالمعول يا فرهاد، قد مضى الكثير وبقي القليل..." التحرك الأول هو تحرك الروح. وهو يلقي السلام علينا اليوم أينما مضينا كأقواس الترحيب المقامة من أكاليل السماء النورانية، بنعومة السكينة ودفء غيمة الربيع. فلقد اقترب موعد احتضانه لوطن المظلومين والمغبونين والمقهورين كله، وصب وابل حنينه الرحيم زحاً زحاً.

وكان القوة -اليوم- قد انصهرت في قالب الحق واستسلمت له بعد أن ذاب معظمها. نعم، في وجود القوة حكمة... فلا يمكن حل مسائل كثيرة من غيرها. ولئن كان ضرر -وأبما ضرر- في القوة المنفصمة عن الحق والمنطلقة معاندة له، فإننا نحسب القوة المتحدة بالحق حقاً بعينه. والجرأة المنبثقة من توحد القوة بالحق حامية للمظلوم لا الظالم، ولسان ناطق للحق. والمهم بعد ذلك أن يمثل جند الفكر والحركة إياه.

وسوف أعرج إلى جند الحركة في عالمنا في موضع آتٍ إن شاء الله تعالى.

إنسان الفكر والحركة

إنسان الفكر والحركة هو رجل الانطلاقة والحملة الحركي المخطط الذي يقوم ويقعد على خفقان شد العالم بالنظام مجدداً، ويمثل حركة إقامة صرح الروح والمعنى من جديد بعدما آل إلى السقوط ومنذ عصور، ويُفسر قيمنا التاريخية كرة أخرى، ويستخدم بمهارة مكوك الإرادة والمنطق في الفكر والحركة، وينقش على قماش روحنا ومعنا زخارف مستظرفة وجديرة تناسبنا.

فهو في خط الحياة الممتد على مدى فصولها من الحس إلى الفكر، ثم إلى الحياة العملية، يتنفس النظام دوماً، وينشغل بحس البناء والإنشاء أبداً. إنه وليّ الحق اللدني الذي يُعدّ "قادة أركان" الروح ومهندسي العقل وعمال الفكر، بدلاً عن استخدام القوة المادية لفتح البلاد ودحر الجيوش، وينفخ بلا كلل نفَس البناء والإعمار فيمن حوله، ويرشد أعوانه إلى سبل عمران الخرائب. وليّ للحق جيش بالشوق والشكر، استطاع أن يوحد إرادته مع المشيئة المطلقة، وأن يحول فقره إلى الغنى، وعجزه إلى القدرة عينها. إنه لا يقهر أبداً ما دام يستخدم مصادر قوته هذه كما ينبغي وبحس الإخلاص والوفاء لصاحبها. وحتى حين الظن بأنه قد هُزم، فستجده على رأس فوج آخر للنصر والظفر.

وقد تجد إنسان الفكر والحركة ابناً باراً للوطن، أو إنساناً حركياً ذا بُعد فكري، أو رجلاً متفانياً في العلم، أو فناناً مبدعاً داهية، أو رجل دولة، أو رجلاً يجمع كل هؤلاء فيه. وفي العصر الأخير ظهر كثير من رجال الفكر والحركة يمثلون قسماً من هذه الصفات. فمنهم من سبق فكره عمله

الحركي، ومنهم من تبارى فكره مع عمله الحركي، ومنهم رجال حركة فكرهم مكنون ومخزون.

رجال في استقامة مديدة يشعون ضياء، منهم أحمد حلمي فيليبه لي، ومصطفى صبري، وفريد قام، ومحمد حمدي يازر، وبديع الزمان سعيد النورسي، وسليمان أفندي، ومحمد عاكف، ونجيب فاضل. ولا يسع المقام هنا حتى لذكر تواريخ الولادة والوفاة لهذه الكثرة من الأسماء المباركة. لذلك نمر سراعاً بعناوين نفرٍ من أبطال الحقيقة أولئك، حتى لا نتجاوز أغراض المقال:

أحمد حلمي فيليبه لي: ولد في مدينة فيليبه ببلغاريا. كان أبوه سفيراً. بدأ التعرف على المعارف وعلى العصر بالدراسة في "سلطانية غلاطة سراي". ثم أقام في إزمير وتوظف في بيروت. وهنا اتصل بعناصر "تركيا الفتاة" فتبعه النفي والإبعاد إلى "فيزان". ثم دعي إلى إستانبول بعد "المشروطة" (الدستور). فرفع راية فكر "الاتحاد الإسلامي"، وإصدر مجلة بهذا الاسم لنشر أفكار هذه الجمعية... وبعد ذلك جريدة "الحكمة" اليومية والتصدي لجمعية "الاتحاد والترقي"، ثم مجلات وجرائد أخرى... والقيام مدة بوظيفة أستاذ الفلسفة في دار الفنون (الجامعة). ثم قتل بالسم في عمر يحسب على الشباب من قبل أعدائه الألداء الماسونيين بالظن الغالب.

إن الآثار والكتابات التي تركها رجل الفكر والحركة الذي ألقينا على حياته نظرة سريعة، لا زالت تنتظر دراسات أكاديمية.

فريد قام: السيرة الوجيزة لرجل الفكر والذوق والبيان الفريد النادر الذي فتح عينه على الحياة العرفانية لاستانبول، كما يأتي:

أستاذ الفرنسية، والاستطلاع الفلسفي الذي أوقعه في قلق لمدة قصيرة، ثم اللجوء إلى التصوف في أحضان العناية الإلهية، فالاستقامة في الحس والفكر مجدداً. وبعد ذلك نشر أحاسيسه في مجلتي "الصراط المستقيم" و"سبيل

الرشاد"... والقيام مدة بوظيفة مدرس في "دار الفنون" و "مدرسة السليمانية"... والانتساب إلى "دار الحكمة الإسلامية" (هيئة من كبار علماء الإسلام)... والتعرض مرات إلى العزل من الوظائف والإعادة إليها، وإلى البأساء والضراء والمضايقات، والدوام في مسيرة الحياة بزهاء ألوها ذات البُعد العقبوي حتى لقاء ربه وكما يليق برجل فكر وعمل حركي. إن هذه الحياة المبجلة لن يسعها مجلد واحد فينبغي أن ينهض من يُعرف الجيل الجديد بهذه الشخصية المثقفة في هذا العصر من جهة امتداده العميق في "الواردات"، وذلك اعتماداً على ما كتب وما نُقل عنه.

مصطفى صبري بك: إنه ابن الأناضول الطاهر هذا، هو "إنسان الكفاح" بكل معاني هذه الكلمة. فوجد "شيخ الإسلام" مصطفى صبري رجل الكفاح والحركية مدرساً وأميناً لمكتبة السراي ومبعوثاً (نائباً في البرلمان) ورئيساً للتحريير في مجلة "بيان الحق"... وعضواً في فرقة (حزب) الحرية والائتلاف، إلى ساعة تركه الوطن بعد "مداهمة الباب العالي" المعروفة. لقد عمل رجل الحركة هذا في خدمة الإسلام في بلاد المسلمين الأخرى متى ما اشتدت العواصف، وعاد إلى وطنه لمواصلة الكفاح هنا متى ما سنحت الظروف... فيفتح صدره لخدمة بلده كلما سنحت له فرصة، فيتقلد عضوية "دار الحكمة الإسلامية" و "المشيخة الإسلامية". ثم يغادر تركيا سنة ١٩٢٢ لآخر مرة إلى رومانيا وإسكجه، ثم مصر... حتى انقضاء عمره سنة ١٩٥٤... حياة أمضاها في كفاح مرير ومكافحة شديدة... حياة مباركة لأبن بار للوطن مشحونة بعذاب ثقيل ومتقلبة بين الصعود والنزول، تصلح موضوعاً للعديد من رسالات الدكتوراه.

أحمد نعيم بابان زاده: ولد في بغداد. أبوه باشا عثمانى. نهل من معارف إستانبول مثل أقرانه. من مراحل سيرة هذا الإنسان الأفق، الغني والواسع في عالمه الحسي والفكري: مدرسة "سلطانية" غلاطة سراي، مدرسة المُلْكِيَّة

(الإدارة والسياسة)، فالتعيين في قلم الترجمة في وزارة الخارجية ومدير التدريسات في وزارة المعارف وعضوية دائرة الترجمة وتدريس الأدب في دار الفنون وعمادة كلية لمدة وجيزة...

إن أحمد نعيم نبع مهم ارتشف منه المجتمع التركي فكراً وروحاً... وترك من خلفه ميراثاً غزيراً من العلم والعرفان للأجيال القادمة.

محمد عاكف: الابن البار والمخلص لهذا الوطن غني عن أي تعريف. كُتبت عنه المجلدات من الأبحاث وتحدث عنه الخطباء. وسيكتب ويقال بلا انقطاع عن إيمانه وعشقه وفوران مشاعره وعمله الحركي وقضيته وفكره. هو من نوادر المثقفين الترك الذي ساحوا في الأناضول وروم ايلي (الممالك العثمانية في أوروبا) وبلاد العرب. وكان حيث ما حل صوتاً لشعب مجيد، لكن منتكس المال، مليء بالحسرة والمهجران، ونَفَساً ينفث الأنين، وتوجساً مبعوثاً فيما حوله. من قلائل الناس الذين حافظوا على خط توجههم بهذا الالتزام العظيم. كان مخلصاً ووفياً في مراحل حياته كلها: بيطاراً ومفتشاً ومدرساً للآداب في دار الفنون وبادلاً جهده في فريق "الصراط المستقيم" ثم "دار الحكمة الإسلامية"، ثم خطاباته في سنوات حرب الاستقلال.

عاش ابن الوطن ذو الصوت القوي، زاهداً كزهدي صحابي جليل، ورحل إلى العقبى فقيراً. وهو ينتظر أياماً عابقة بالوفاء من الأكاديميين بالبحث والتمحيص عن جوانب فكره وعمله الحركي وفنه، مع حفظ الشكر للجهود المبذولة في هذا الشأن حتى الآن.

محمد حمدي يازر: قامة مرفوعة معلومة للعالم. بعدما حصل على العلوم الابتدائية في "ألمالي"، من نواحي الأناضول الصغيرة، توجه إلى العاصمة إستانبول "لإكمال التُّسَخ" حسب المصطلحات في درجات العلم. تتلمذ على يد مشايخ بصورة خاصة، ثم "امتحان الرؤوس"، ثم "مدرسة النواب"، ثم مدرساً في "مدرسة الواعظين"... ومرتقياً إلى "الدرس العام". ثم مبعوثاً

نائباً في البرلمان) على اثر المشروطة... والتوقيع على فتوى يجيز خلع السلطان عبد الحميد في خطأ اجتهادي... وعضوية دار الحكمة الإسلامية... ووزيراً للأوقاف... والوقوف تحت طغيان محاكم الاستقلال في العهد الجمهوري، والانزواء الطويل بعد النجاة من غضب هذه المحنة بفلتة أدق من الشعرة، ثم تصنيف ذلك التفسير الأشم. هذه خطوط عريضة منتقاة من سيرته.

إن العلامة حمدي يازر من الشخصيات البارزة التي ينبغي أن نتوقف عندها ملياً باسم حياتنا الفكرية وعملنا الحركي.

تجيب فاضل: جذور عائلته في "مرعش" من حواضر الأناضول. لكنه وجيه مشبع بتربية إستانبول وآداهما، ولد فيها وعاش فيها حتى وفاته. الكلية الأمريكية والمدرسة البحرية كانتا ملء سندانين من التراب ذي قوة إنبائية يحتضن هذه القابلية الفذة وكومتين صغيرتين للوثبة الذاتية. ومن المنازل التي نزلها ثم رحل عنها سريعاً: قسم الفلسفة في دار الفنون. وسوربون باريس منفذ صغير للاطلاع على الغرب. ولم يستسغ وظيفة مفتش في البنك فكأنه فيها بائع متجول، فغادرها. أول دار نَفَخَ فيها روح الفن في كل صدر موهوب أو غير موهوب هي كونسرفتوار الدولة (معهد موسيقى الدولة) وأكاديمية الفنون الجميلة. إنه صاحب المدرسة الفكرية: "الشرق الكبير"، المسماة باسم الدورية التي أصدرها مرات، كلما منعت من الصدور أعاد إصدارها، وكلما صدرت أغلقت بالمنع عن النشر، بإرادة قوية تدفعه إلى المثابرة في التخطيط للصدور أثناء المنع. فهو بانيتها ومهندسها وصاحبها المثقل بالعذاب والبأساء والضراء.. وهو أحد أفذاذ أساتذة الشعر والنثر ومهندسي الفكر المستقبلي في العصر الأخير. وإن غوصه في الفكر الصوفي، وعمقه في الميتافيزيقا، وتوقيره المتين في عمره كله للحقيقة المطلقة، واحترامه الفائق وتوقيره المكين إزاء سيد الأنام ﷺ، هي قطرات صغيرة من بحر المتمد

إلى الآفاق. وإن تعريف جيل الشباب التركي والعالم كله بهذا الإنسان العملاق وتوجهاته كلها، والتي ألحنا إلى بضع قطرات منها هنا، إنما هو مقياس قدراتنا على استشعار العظمة عند الآخرين. بل أمل من أهل التوقير أن يؤسسوا معهداً لدراسة نجيب فاضل.

سليمان أفندي: سليل عائلة أصيلة في سلسرة. شيخ وابن شيخ. عاد إلى بلده التي ولد فيها "مدرساً" بسائق الوفاء الخالص بعدما أنضح غناه الروحي في آفاق عرفان استانبول. وتتوسم عائلته التي تعلق عليه آمالاً عظيمة خيراً في طلابه المتحلقين حوله، وفي إخلاص ووفاء أخلائه وإخوانه، فترى فيهم رسالته ومستقبله، وتبتسم لمن يلحق بهم من بعدهم.

سليمان أفندي رجل كفاح قل مثيله، ممن لا يعرف الكلال في عمله الحركي. فكان في عمره كله منافحاً صادقاً وثابتاً عن فكر أهل السنة والجماعة. فهو داعية الكفاح الشامل وليس الكفاح في خط الدفاع، في عصر تعرض الحس والفكر الديني إلى هزات متكررة... فنقش الشيخ الفكرَ الديني مع الحس التاريخي في نسيج أرواحنا نقوشاً بديعة... واجتهد في إشباع قلوبنا من أصول وجودنا بالدورات التعليمية ومساكن الطلبة وبيوت الإقامة في كل أنحاء البلاد، فلم ين ولم يفتر عن غايته هذه ورسالته حتى رحيله إلى حيث يطير الأرواح والروحانيون.

ولست أزعم أن أسطراً أو صفحات قادرة على تعريف رجل الحركة العظيم هذا... بل ولا المجلدات من الكتب تستطيع الإيفاء بحق إنسان الروح والمعنى، هذا الذي زان أرجاء البلاد من "أدرنة" إلى "أردهان" بالعلم والعرفان، وفي مدة قصيرة، وراعماً أنف العوائق. ففتح هنا وليجة ضيقة، ونأمل أن يتوسع الباحثون والأكاديميون المنشرحون بالمعاني، فيفتحوا الأبواب على مصارعها في تدقيق رسالة هذه الشخصية الفذة وعمله الحركي وفكره وفلسفة خدمته.

وعندما نفكر في مُنَوَّرِي النصف الثاني من القرن العشرين، هل يمكن أن لا نتذكر نورالدين طوبجي، ابن الأناضول ذا العقل الولود وإنسان العشق والحماس مع التحفظ عن بعض مطالعاته التي لا تنسجم مع معاييرنا الأساسية... ولا نلتفت جيداً إلى سزائي قاره قوج، العقل المميّز والفكر العميق، المنتظر لإفراخ البيوض بصير حواضن القن، الهادئ هدوء المرجان على آلام جراحه الدامية في سيره المتواصل، شاعر العصر ونائره العظيم الذي سيقروّه أبناء الأجيال الآتية في شغف... أو لا نتوجه بالشكر والامتنان إلى أسعد أفندي... أو لا نستشعر الوقار أمام سامي أفندي، أو لا نتحسس العشق والحماس والحركة في معالي مسلك الخدمة لحضرة الأرواسي، وعلي حيدر أفندي، ومحمد زاهد قوطقو، وإمام "ألوار"، وشيخ سيّدا "سردهل"، ومحمد راشد أفندي من "منزل"... ثم هل يعقل أن لا نذكر بديع الزمان النورسي خاصة، وهو الذي قلب مخططات دنيا الكفر والإلحاد رأساً على عقب بإيمانه وفكره وعمله الحركي المدهش؟

لقد كتب وقيل عنه الكثير الكثير. العالم كله يتحدث عنه. وهو من الأوائل الذين يجوزون على أكثر عدد من القراء في العالم وبلغات عديدة. لذلك، لا نجد ضرورة ملحّة للتعريف به، فنكتفي بإدراج مطالعة وردت في تقديم كتاب له: ^(١)

بديع الزمان سعيد النورسي: عَلَّمَ يَنْبَغِي التفكير فيه باعتناء وتعريفه للإنسانية بأبحاث مستفيضة، فهو رجل العصر الأول الذي أبرز إيمان العالم الإسلامي ومعنوياته وعمقه الوجداني الفسيح، وبصورة صافية ومؤثرة. ولا نحسب أن مقتربات الملاحظات العاطفية لفهم شخصيته وأفكاره مقتربات سليمة لمعرفة تراثه وآثاره. فالعواطف لا تتألف مع جدية المسائل العالية الزخم التي أظهرها وأبأها بشجاعة عظيمة في كل زمان وآن. فقد

(١) يراجع تقديم كتاب "المثنوي العربي النوري" لبديع الزمان سعيد النورسي.

عاش حياته كلها إنسان محاكمة منطقية وعقلية، في ظل الكتاب والسنة، وبموازين التجربة والمنطق، في حال العشق والحماس العميق.

لقد دجت الأقلام كتباً، وأطلقت الألسن خطابات كثيرة عن حقيقة الفكر العالي لبديع الزمان النورسي، وسعته الإنسانية، ووفائه، وإخلاصه لأحلامه، واستغافه، وتواضعه، ومحويته، واستغناؤه. والحقيقة أن كل خصلة من هذه الخصال التي يتصف بها ويتطرق إليها في رسائله مراراً وتكراراً، تستحق كتاباً مستقلاً بذاتها. ويشهد على أحواله هذه عدد كبير من أصدق الشهود الذين سعدوا بالعيش قريباً منه، ولا زالوا أحياء بين ظهرانينا كأهم كتب شاخصة متجولة.

يبدو بديع الزمان إنساناً بسيطاً وعادياً من الناس في مظهره الخارجي لأول وهلة. لكنه يحتزن شخصية راسخة قلماً تتوافر في غيره أو في كل زمن من جهة حياته الفكرية وعمله الحركي. فقد كانت تصرفات عادية بالنسبة إليه أن يحتضن الإنسانية جمعاء في المسائل الحيوية للإنسانية، ويمتلئ بغضاً وتفززا ونفوراً على الكفر والظلم والضلالة، ويجارب الاستبداد أتى كان، إلى درجة الاستخفاف بالحياة لهذه الغاية بوفائه ومروءته وترحيبه مستبشراً بالموت. عاش إنسان حس رحيب، ملتزماً في رسالته ودعوته بفلك الكتاب والسنة لا يغادره، متلوناً بألوان المحاكمة العقلية والمنطق. لقد اتصف في كل وقت بصفتين ظاهرتين، الأولى: صفة كونه رجل وجدان رحيب، ومثال عشقٍ وحماس أصيل، وإنسان شهامة ومروءة عظيمة. والثانية: صفة كونه مفكراً متوازناً غاية التوازن، يتقدم على معاصريه أشواطاً في الرأي والبصيرة، وصاحب عقل سليم ينتج خططاً وبرامج شاملة. فالاقتراب إلى بديع الزمان ودعوته من هذه الجهة، مقرب مهم لفهم ما يعنيه لنا في عصرنا الذي نحن فيه باعتباره امتداداً لسلسلة عظماء الإسلام.

ومهما تغاضى بعضهم أو تناسى، فقد لقي بديع الزمان قبولاً بأنه مفكر

وكاتب بزّ أقرانه المعاصرين له، وصار رائداً وترجمانا لجمهور الناس، لكنه لم يصب بالعُجْب قطعاً، ولم يمل إلى الظهور والرياء، ولم يقرب منه الكثير. فمن بياناته الذهبية قوله: "الشهرة عين الرياء وعسل مسموم يميت القلب". لقد دخل التاريخ واحداً من المعالم في العالم الإسلامي، والعالم كله في الوقت الحاضر، الذين يرتقون الدرجات العليا في سلم الكُتّاب المشهورين والمقروءة كتبهم بشغف في كل وسط وزمان، والذين لم يذبل غصن جدتهم.

إن مصنفات بديع الزمان كلها ثمرة جهد جاد ودؤوب من أجل توضيح مسائل ومشكلات معروضة على الرأي والنظر في العصر الذي صنفت فيه - إذا أطللنا عليها من هذه الجهة-. فمن بين سطورها ينبعث صوت الأناضول، ثم العالم الإسلامي، حيناً نشجاً ونحيباً، وحيناً أملاً وشوقاً وطرباً. ولئن كان النورسي قد ولد في قرية قصية من أصقاع شرقي البلاد، فإنه أحس في نفسه بمشاعر ابن الأناضول أبداً، وتنفس مشاعرنا وأحاسيسنا كسيد من أبناء استانبول، واحتضن الوطن جمعاً وكلاً في كل وقت وزمان، بشفقة رحبية وخلوص شاخص وطري.

لقد أرشد بديع الزمان إنساننا المترنح برجّة تصيبه بعد رجّة، إلى السبل الموفية إلى نبع "الخضر"، ونفخ في جموع البشر هواء "الانبعاث بعد الموت" أينما رحل وحطّ، في زمان شؤم أوقع الفكر المادي فيه حياتنا الفكرية في تشتت الهرج والمرج، وجن فيه جنون الشيوعية، وسقط العالم في أسوأ أيام الضياع والظلمات والحن. وذلك بمصنفاته التي تفوح منها نفحات الإيمان والأمل. لقد استشعر وشخص الداء الأعظم قبلنا وقبل الناس جميعاً، ألا وهو الفوضى الناشئة من الكفر والإلحاد، فتصدى لها. لقد نفث في إنساننا طوال حياته ضرورة التغلب على وباء العصر هذا... وكافح في سبيل ذلك كفاحاً فوق طاقة البشر. كان بديع الزمان في أوعى حالات الإدراك لواجباته الملقاة على عاتقه، عندما جا بهم عالم ينشج في حمى ثقيلة الوطأة.

فلما حمل حملاً أثقل من جبل "قاف"، أحنى ظهره في غاية حال من التواضع والمحوية، وفي استحياء. ولكن في غاية الثقة بالقدرة المطلقة للحق تعالى وغناه اللاهوائي.

فإن بديع الزمان -وبأدائه كالطبيب الحاذق- ذكرنا جميعاً بالزنزانات التي في دواخلنا وأنواع الحكوميات في أرواحنا، وجرائنا الذاتية وتقييد ذواتنا بأنفسنا، ونفخ في قلوبنا المشتاقة إلى العلويات أنفاساً متوالية بتحريك جوانبنا الإنسانية الخاملة من عالمنا الروحي وحياتنا الوجدانية، ونشر أمام الأنظار علاقاتنا الوطيدة المغزى بالأخريات، وصب فوق رؤوسنا جميع واردات التكايا والزوايا والمدارس... في أيام نحس سود سيق البشر فيها إلى الإلحاد بالاستغلال السيء للفنون والفلسفة، وتعرضوا إلى "غسيل الدماغ"! بالشيوعية، وأبعد المتصدون لهذه السلبيات في البلاد نفيًا وتعريبًا، وأشيع في أرجاء البلاد أشد الخيارات المخجلة، والباعث للحيرة أن كل ذلك جرى باسم التحضر "والعصرنة"، حتى غدت "العبثية" (Nihilism) سحر العصر الساري كالنار في الهشيم.

نعم، قد صار النورسي طبيباً حكيماً، مفكراً، وباحثاً عن الحلول، وفاحصاً ومشخصاً، ثم واصفاً دواء هذه الأمراض، لزمنا الفتن والمهرج، كان الشعب فيه يعيش حمى الضعف الفكري والمهموم الاجتماعية، ويُسلط عليه مئات الحوادث المرعبة في أنحاء الوطن كافة، ويئن تحت ركام القيم الإسلامية والمليّة التي تهدمت فوق رأسه. فهو رجل عاش منذ البداية مشدوداً دائماً، مفكراً، مقدماً الحلول البديلة للدولة والمجتمع، ساعياً في تلقين هذا الشعب الجيد لكن الفقير حظاً، وهذه الدولة الشامخة لكن الأقلّة طالعاً، دروس ماضيه الرحيب والغني، إذ يرى حيرة الأجيال المسكينة المضطربة قلقاً تحت المصائب والنكبات المهولة التي أعدتها السنون السود الطويلة وجهزتها لها، فتتخبط في وديان العجز والضلالة والشك، وكلما أرادت الخلاص

دفت نفسها في أحوال أزمت أعمق... يرى حيرتها، ويستشعرها، ويصغي إلى صوت ما يراه وما يستشعره.

ساح بديع الزمان في أرجاء كثيرة من البلاد منذ عهد الدولة العلية العثمانية، بمدنها الكبيرة أو قراها القاصية، وبنواحيها التي تعج بالبشر أو مناطقها القليلة أنفساً، فرأى حيثما حل سريان الجهل في الناس وتضورهم في الفقر وحد الضرورة، ونهشهم وإفناءهم لبعضهم بعضاً بأنواع التفرق، فخاف وذعر. فأراد أن يشحن تلك الجموع التعيسة بروح العلم، باعتباره مفكراً واعياً بأحوال العصر. والتفت إلى معضلة الفقر والحاجة والاقتصاد. وبحث عن حلول التفرق وصار داعية يتنفس وحدتنا في كل زمان وبلا توان... ولم يترك شعبنا وحيداً لحظة واحدة في تلك الأيام العصيبة الكأداء. كان ينادي بأعلى صوته حيثما حل: "سوف تؤول أمراضنا إلى أسقام مزمنة، وجراحنا إلى عطب لا يبرأ، إن لم نبادر منذ الآن إلى معالجة عللنا، وضاد جراحنا على أيدي حكماء حاذقين. فلا بد من تشخيص عللنا العلمية والاجتماعية والإدارية، وحل عقد مشكلاتنا المادية والمعنوية كلها، حتى لا نقع في مضايقات تسحبنا كل يوم إلى المهايوي الشنيعة التي تمضغ وجودنا وهز كياناتنا من الأساس".

فالنورسي يرى مصدر المفاسد كلها -بالأمس كما اليوم- في الجهل والفقر والتفرق. الجهل هو أول الأسباب لمآسينا الاجتماعية ومقدمة الدواعي إلى بؤسنا السائد فلا شبهة في أن أعظم مصائبنا -أمس واليوم- هو الجهل بالله وتناسينا للنبي ﷺ وترك روابطنا بالدين والتعامي عن محركات تأريخنا المادية والمعنوية. ولقد جعل بديع الزمان حياته وقفاً على محاربة هذه الجرائم القاتلة. فلا جدوى -عنده- في انتظار خلاص الشعب ما لم تُنور جموع الناس بالعلم والعرفان، وما لم يتعود المجتمع على التفكير المنظم، وما لم توصل الأبواب بوجه تيارات الأفكار الخاطئة والمنحرفة. أليس الجهل هو الذي فك روابط الكائنات بالقرآن، وروابط القرآن بالكائنات؟ وبفك

روابطهما جعل أحدهما يتيماً في زنازانات خيال النفوس المتعصبة، الجاهلة لأسرار الوجود والمنحسبة في الأشياء والحوادث، وجعل ثانيهما عبثاً وفوضى في أيدي الجاهلين جهلاً مكعباً، الباحثين عن كل شيء في المادة، والعمين تماماً عن المعنويات. ثم أليس الجهل هو الذي أبكى هذه الأرض المباركة نحيباً في قبضة الفقر والبؤس وجعلها متسولاً يستجدي خدام الأبواب القدامى، وهذه سهولها المنبتة وسهوبها الفياضة وأثمارها الكثرية؟

ثم، ألسنا بسبب الجهل والفقر نعيش بؤساء ومشردين، وفي شدّة الديون الرهيب، محنية ظهورنا وطاوين على بطوننا، وتلك معادننا التي لا تقدر بثمن نائمة في سكينّة تحت التراب، ومصادر ثرواتنا التي لا تعد ولا تحصى، تصب في خزائن غيرنا؟

هذا البلاء يعذب شعبنا منذ سنين طويلة... فالعامل والفلاح يكذب بلا كلل وينسحق رهقاً، ثم لا يجني ثمار كده وكدحه. وإن جنى شيئاً فلا يجد فيه بركة، ولا يسعد به، ويتوارى شيئاً فشيئاً قهراً وشقاء.

وبسبب الجهل والتفرق المنبعث من الجهل، يعيش العالم الذي يرتبط بنا وحيثما كان، حياة من القهر والأسر والتحكم والذل وأنواع البلاء والأمراض، ويغرق في بحار الدم، وتنتهك فيه الأعراض ويداس على الشرف، ويعجز عن كبح جماح الفرقة وإعطاب عجلة الفواجع والفضائح في قلبه ذات اليمين وذات الشمال في هذا العالم المترنح في شباك فقدان الموازنات والمعايير... بل لا نجد وسيلة لخلاص العالم الإسلامي من التدرج يوماً بعد يوم إلى مهاوٍ مهولة وبغيسة، ولا نتحفز بروح الوحدة، ولا نصفي حسابنا مع العصر.

إبان تجرّعنا الآلام في فح الأوجاع القاهرة المتسلطة على شعبنا، تداعى قومٌ خَلَبَ أبصارهم بريق رقي الغرب الصوري والمادي، فتكدرت بصائرهم ودارت رؤوسهم، فجردوا جموع البشر من السجايا "المليّة" وحرموهم من

حس التاريخ وسلبهم الأخلاق والفضيلة، هُناً وراء تقليد أعمى وشعارات خداعة، بتصرفات لا جذور لها ولا روح فيها البتة، بدلاً عن إمداد أدمغتهم بالعلوم التحريية، وقلوبهم بالحقائق الدينية، بلوغاً إلى الغنى المادي والمعنوي. وعندى أن سيرهم في الطريق الأول الذي انحرفوا إليه باسم إنقاذ الشعب، أوقع الضرر الأعظم وفتح في روح المجتمع جرحاً لا يندمل.

ففي الحال الثاني المذكور آنفاً قد يطول المكث الأليم في كابوس خانق سنين وسنين. ولكن باختيار الحال الأول هوى وانهار صرح فضيلتنا "المليّة"، ونجابتنا الروحية، وعملنا الحركي ذي الاحتواء العالمي.

لقد واجه بديع الزمان المعالجات في كلا الحالين وتصدى للتعقيدات الاجتماعية التي خلفتها أخطاء هذه المعالجات، وشق بمضعه أوارام قرن من الزمان، وشرّح وشخص الفواجع الناجمة من احتقان قيجها. فأعاد ابن الوطن البار هذا، وكرر بلا فتور قولاً وكلاماً ثابتاً، وحمل على أدوائنا بلا كلل حملة دائمة لا تضعف، ووصف لها أدوية ناجعة، من أجل إنقاذ الوطن وخلص إنساننا من السقوط والضياع. فلم يتوان عن ذلك طوال حياته من بدايتها إلى وقت لقاء مولاه الجليل في "أورفة"، بصدق وإخلاص قلبي، وبصوت جهوري وقول متين. إن غرس أفكار جديدة في عقل المجتمع عمل شاق وعسير بقدر انتزاع العادات والتقاليد الموروثة من الماضي بنفعتها وضرها والمفاهيم والمتلقيات الراسخة. وفي جموع البشر ميل دائم في الماضي والحاضر إلى الوقوع في مؤثرات أمثال هذه التركات -سواء النافعة منها أو الضارة- فتصطبغ الحياة الفردية والاجتماعية بصبغة هذه المؤثرات، وتشمئز مما لا ينسجم مع المعتاد ولا يداعب الحس العام، فينفرون مما يחדش حسهم ويبتعدون عنه. وقد يخطئ هذا الحس أو الشعور أو القبول أحياناً. فإن كانت مثل هذه الأفكار والقناعات غير الصحيحة قد وجدت رضا وقبولاً عند الجمهور والجموع البشرية، وتمثلها المجتمع بطول المعيشة، ومدت جذورها وتنامت أغصاناً وفروعاً في منابت الحياة واستقوت، فاللازم لتقدم

الشعب نحو المستقبل أن تُهدم هذه القنوات الخاطئة، وأن تُزال هذه الانحرافات الاجتماعية، وأن تُنظف القنوات المتعفنة بتمرير الأفكار العامة ووجدان البشر من مرشحات التخلية والتحلية، من الحَسَن إلى الأحسن، بمعنى التصفية من كل فاسد والتزود من كل صالح.

وهكذا كان بديع الزمان النورسي منذ أيام الشباب في مشاعره وأفكاره. فعَدَّ إخفاء أدنى حقيقة في هذا الباب غدرًا بحق وطنه وإنسانه، وفتح ذراعيه بطولهما حاجزا أمام الأفكار والقرارات الخاطئة المودية بالشعب إلى مهاوي النكبات، ونادى بأعلى صوته صارخاً: قفوا... هذا الطريق مقطوع! كانت فطرته متحيزة انحيازاً كاملاً ضد كل خطأ أو كل ما يناقض القيم الدينية. وكان صاحب أفق مديد وذا هممة من أهل العزائم. فغضَّ الطرف عن فناء أمة عظيمة واضمحلالها، واللامبالاة بذلك، يناقض ويضاد طبائع هذا الإنسان الطاوي صدره على قلب أسد. فأرشد الأمة إلى محاسبة نفسها بعد تسليط الضوء على أدق وأخفى نقاط قصورنا ومعايينا وأسباب مصائبنا ونكباتنا. فذكرها من غير ملل بأسباب انقراضها ووصف لها سبيل الخلاص، وأبان جهاراً أشد الحقائق إيلاماً من غير تلكؤ... وحَمَلَ بِخَيْلِهِ على القنوات الخاطئة والأفكار المتعفنة والكفر والإلحاد... وكافح بلا هوادة وطوال حياته مقاوماً عوائق انتشار أنوار الحقيقة جميعاً.

لقد انبرى النورسي في أحلك العصور، إذ أحجم الناس عن ذكر الحقائق الدينية توجساً وخيفة، فشحن جموع البشر باليقظة لما أرادوا لهم الغفلة، وأعلن الحرب على الجهل والفقر والتفرق، وزعزع أركان أنواع الأوهام التي جثمت على صدر المجتمع، ومارس كفاحاً على طول البلاد وعرضها وليس في حط الدفاع فقط ضد الإلحاد وإنكار الألوهية، وكذلك، خنق الباطل والانحرافات في إشكالاتها المنغلقة. وأبدى دوماً جرأة مدنية سلبت الأبواب إعجاباً في إشهار همومنا المزمنة وسبل معالجتها. لقد أُشْتُهَر أن "آخر الدواء الكي". فكأنه في مجالدته للرياء وحب الظهور والكبر المستفحل منذ قرن أو

قرنين وسمَّها وكواها بالساقور، فخطب بقول ثر وندي وَّجَد صدَى في روح كل إنسان، يستوي في ذلك رجل السراي ورئيس عشيرة في شرق تركيا، والمشيخة الإسلامية وأركان العسكرية. فلما خاطبهم شدَّ إليه أنظار الناس من كل صنف. ومع أن جيلته تنفر من ذلك أشد النفور، فإن طبائع شؤونه وأموره استدعت ذلك الالتفات.

نبّه النورسي كل فئة إلى ضرورة كسر الأغلال الآسرة لأفكارنا وأرواحنا، قبل سل السيوف من الأعماد، إن أردنا دوام الجهاد... وأرشد الأجيال الفتية إلى السبل الموفية إلى الفكر الإسلامي في بشرى "الانبعاث بعد الموت". فكان يخشى ويرتعش فرعاً من انقسام جغرافية الوطن وتمزقها وانكماشها، لكنه كان أشد فرعاً من أمور تؤدي إلى تلك السلبات مثل ضيق التفكير وبؤس الأرواح وتقليد الغرب والشكلية.

لم يملّ النورسي من الإصرار على القراءة والتفكير والعمل، ولم يكلّ من السعي لأجل إنقاذ أفراد الشعب من الفردية المتبادلة وبناء مجتمع مثالي وشعب عامر. فكان يلح على "المعارف" و "التربية والتعليم". فيحث بالضرورة على نشر المعارف والتربية والتعليم في كل مكان وبكل وسيلة... فينبغي عنده انخراط المساجد والمدارس والمعسكرات والدروب والمتنزهات، بل حتى السجون، في نفيير التعليم العام. فبالمعارف وحدها تتحقق الوحدة العقلية والمنطقية. فالذين لا يتوحدون عقلاً بعقل، ولا ينصهرون على ذلك، يعجزون لا محالة عن السير معاً في طريق معين زمنياً طويلاً، ولا يحفظون تساندهم وتعاضدهم. فينبغي أن يتوحد الوجدان أولاً. حتى تتوحد القلوب والأيدي. ووسيلة وحدة كهذه هو ضبط الحياة بضوابط الدين وتفسير الأمور المتعلقة بالزمان حسب مدارك العصر مع التقيد بالكتاب والسنة والاجتهادات الصافية للسلف الصالح.

نعم، لا بد من أن يتعرف إنساننا بهذا العصر، وبواردات العصر ومعانيه

وتفسيراته، وأن ينجح في ذلك ويتواءم معها. فإن مقتلنا في انحسارنا داخل قشورنا واستغراقنا في الانزواء، والدنيا تسير سابلة الزمام. فلا بد أن يمسك الذين يريدون أن يحيوا حاضرهم بحبل الانسجام والوثام والتعاون ما بين شلالات الحياة، وبين إرادتهم الذاتية وسعيهم وجهدهم. وبخلاف ذلك، لا مفر من الاضمحلال في حال مقاومة التيار العام في الكائنات.

ولو تفهم عدة معات من المثقفين بديع الزمان وأعانوه، عندما كان يسعى حثيثاً ويلهث ركضاً في كل ناحية من أرجاء البلاد، عارضاً رسالته، فرمما كنا اليوم أعني من كل دولة، وأسبق شوطاً في الحضارة بين الأمم، وربما بلغنا قوة كانت تؤهلنا لاجتياز العراقيل التي وضعت في طريقنا لاحقاً، فكنا انخرطنا في طريق النور -الذي يبدو كأننا انخرطنا فيه الآن- منذ بداية القرن العشرين، ولم يكن الكثير من مشاكلنا الحالية تواجهنا اليوم. مع كل هذا، لا زلنا متفائلين وأنا أجزم بأن الذين يزعمون أن منابع المعاني لشعبنا قد نضبت تماماً هم في غفلة وذهول. نعم، قد سقطنا مثلما سقطت شعوب أخرى... هذه حقيقة ظاهرة لا يمكن أن تخفى. لكن قدرتنا على رفع هامتنا واستعادة وعينا أيضاً حقيقة لا شك فيها. ونرى في الحاضر بوارق لمعان يقظة تحل محل الركون القديم إلى الراحة. فثم حرارة للحبوية الندية والانبعاث الطازج تسري في أرواحنا الغارقة في أحضان الراحة والخمول. ولا بد أن يعقب هذه التطورات ربيع زاهر الأيام. لكننا في انتظار رجال يسيحون فيفرشون الوديان بالسجادات كالحضُر، ويفتحون الأشرعة في السهوب بلا وجل كإلياس. وبديع الزمان علامة مهمة في هذا الطريق.

يقال "إن العبقري لا يختار". والمعنى أن الداهية لا يقول أعملُ هذا ولا أعملُ ذاك، أو يحكم بأن هذا العمل مفيد وذاك ضار. لأنه صاحب فطرة خارقة يجمع في روحه قوى تتحمل فوق أكتافها أموراً كثيرة. موهبة إلهية وبسائق وشائق لدي، فيحتضن بها حاجات محيطه الظاهرية والباطنية

والروحية والاجتماعية بأعمق أغوارها وأوسع حدودها. ومن يمحص النورسي ومصنفاته سيجدده جامعاً لعناصر الدهاء. فيرى أنه صان رفعة درجته فوق الدرجات دائماً وتكلم بدهاء في كل زمن، ابتداء من أيام شبابه في كتبه التي تُعدّ من أول أنفاس دهائه، بثها فيمن حوله، إلى مصنفاته التي انكشفت وتكاملت في عمر النضوج عبر حياة معذبة مرت بالمحاكم والسجون والمنافي.

نحو عالمنا

لا يخفى على نظر المتبصر تداخل الفكر والحركة ببعضهما في وقائع التاريخ العظيمة. تداخل يتربى ويتبرمج فيه العمل الحركي بالفكر من جهة، وتحميئ فيه الحركة والجهد الحركي أرضية لأفكار وبرامج جديدة من جهة أخرى. فكأنَّ الفكر - بهذا المعنى - سماء ومطر للعمل الحركي، أو فضاء وهواء له، وكأنَّ الحركية أرض وسندانة للفكر، أو تراب وقوة الإنبات فيه. فلا أحسب هذا الأداء المتقابل بينهما غلطاً. ذلك بأن كل جهد حركي هو تحقق فكر وبرنامج، وكل فكر هو بداية ووتيرة للعثور على أطره الحقيقية وبلوغ مرامييه في ثنايا التحركات الملتزمة به. إن المرحلة الأولى للإرادة هو ميل داخلي، وحَدُّها النهائي هو العزم والقرار والهمم بالعمل. والفكر في هذه الوتيرة كخيوط لفائف تلقى من المبتدئ لتتعلق بالنتهي، والأعمال الحسية كنفوش تزين هذه اللفائف. وإن التصرفات من غير فكر أو برنامج تؤدي في الأكثر إلى الفشل والفوضى، وإن الأفكار الجامدة من غير حركة، تعيق تشكل النموذج الذي يُعدُّ البعد النهائي للفكر، وتُصدِّع روح الإرادة.

إبان تقدمنا إلى عصرنا الحاضر، حُجبت أنوار الفكر عن إضاءة زوايا المجتمع، وعُطلت الإرادة تعطيلاً كاملاً... ومُنِع "التمثيل" عن التأثير وذُبح الحركية على يد الفوضى. ودفعت أحداث التاريخ المشؤومة المجموعات البشرية من مأزق إلى مأزق، ومن تشتت إلى تشتت. وجرت النفوس الأنانية والنفعية الكتل الإنسانية يمناً ويسرة. واستغلت على الدوام للانتفاع منها. فلا مفر ولا منجى إزاء هذه السلبيات في إنساننا المعاصر من القول: "رويداً.. ومهلاً قليلاً"، إلى حين النضج الكافي لتحريك قواه القلبية والعقلية. لا مناص من أن نقول: "رويداً.. ومهلاً قليلاً" إلى حين إزالة الضعف في

سجايانا الفردية، وإشباع إرادتنا بالقوة، وتربية معتقداتنا حسب مقياسها اللازمة، وانتزاع اليأس بأنواعه من نفوسنا. وقبل كل شيء، من أجل الانسلاخ من "الانشداه بالغرب".

نعم، قد أوقعتنا هذه الحوادث المتتاليات في الغرب، من النهضة الصناعية إلى التقدم التكنولوجي المعاصر، في شدّه بعد شدّه، فأصابتنا بالشلل، كما دوّخت رؤوسنا وكدرت أبصارنا المُتَلَقِّيَّاتِ الخاطئة لدعوى "العلمية" والخفة الفارغة "للعصرنة". وربما يدوم هذا الضعف والاهتزاز مدة أخرى. وربما يستمر المشي في السبات والتكلم في النوم، فيلزم أن نصبر ونحتمل سنين، علمها عند الله. نعم، سنصبر، لأننا نعي ونستشعر الحاجة إلى سنين قد تطول من الانتظار الحي في الأعماق المرجانية، ومن الحركة المؤثرة والمنظمة في حضانة البيوض، حتى يتعافى سائر البدن المتضعع، ويستجمع قوته ليقتر على تصفية حسابه مع العصر.

وإني أؤمن إيماناً صادقاً بأن هذا الانتظار والحركة سيحينا ويحقق بأيدينا تغيير وجه العالم في يوم آت. لكن لا شك في الحاجة إلى الزمان والظروف والإمكانات ليسري دم هذه الوتيرة في عروق الحياة، فتنبغ إرادات عظيمة وقوية تتسم بعمق الشيخ عبد القادر الكيلاني ورحاب الإمام الغزالي وربانية مجدد الألف الثاني الإمام أحمد الفاروقي السرهندي وعشق وحماس مولانا جلال الدين الرومي وجامعية ورسوخ بديع الزمان سعيد النورسي... لتتهيأ بيئة حياتية ندية وطرية ببث روح جديدة في إنسان يومنا، فتصد أمواج حُمى الأزمان التي تحطم منذ عصور إحساس إنساننا وفكره وفراسته، فننفخ في روحه أنسام "الجودي". كذلك، لأجل أن نفتح بلاد أنفسنا بأنفسنا، ونُشكّل حركات أرواحنا من جديد، ونعمّر عالمنا القلبي والحسي والفكري. وعلى الضد من ذلك، لن نستطيع أن نقطع شوطاً في الطريق، مثلما لم نستطع حتى الآن، ما لم نجهز فرساناً من نور يأخذون بأيدينا إلى

منايع "الخِضْر"، وما دمنا منعزلين عن ذاتنا وقيمنا الذاتية، وطالما عشنا تائهين خارج منظوماتنا الروحية. وما من سبب يدعونا إلى البحث عن عدونا في الخارج. لأن عدونا في داخلنا... جالسٌ في قصره، واضع إحدى ساقيه فوق الأخرى، يتطلع من الشباك على ضياعنا، ويضحك ضحكا مكتوماً.

فإن كان لازماً بالضرورة بناء استراتيجية الجهاد، فينبغي أن يبنى على انتزاع وطرح أعداء مترعين فوق عروش نصبوها في قلوبنا، لا أمان ولا إيمان عندهم. والواقع أن هؤلاء، ولا غيرهم، هم الذين يحاصرون عالمنا منذ قرون. ومرت سنون طويلة ولم ينج شعبنا من هذا الحصار القاتل، ولم يفلح في العودة إلى الذات، ولم يقم على ذاته. فصار مثلاً للتشردم ولم ينجح في لمّ شتاته، وكأنه غرض مستهدف لرماية مجتمعات وأعراف وعادات شتى، أو كأنه منكوب في عقله يمر به أقوام وقبائل كثيرة ومفاهيم متنوعة، ويعبد أصناماً كثيرة في آن واحد ويجثو أمام آلهة موهومة كثيرة في وقت واحد، ويجدد العهد والولاء لمعبودات مزيفة عديدة في يوم واحد! هذا ما وقع... لأنه لم يصدق تماماً بصحة وسلامة أي فكر من الأفكار في تلك الفترة المشؤومة. ولذلك، عاش مرتبطاً بمحاور فكرية متعددة في وقت واحد، لكنه لم يعايش تياراً واحداً منها معايشة كاملة.

ومن يعلم كم فكر عظيم بقي حبيساً في برزخ، فلم يشهد الحياة، في هذا العالم المثقل بالدخان والضباب، وكم منهج جاد تحطم مصطدماً بالأفكار الكدرة للمصايين بقصر النظر! فهؤلاء لا يولون أهمية ولا يعون معنى للعلم ولا للمعاني التي تربط بين الأشياء والحوادث، ولا للمناسبات بين الإنسان والكائنات.

فالمسألة عندهم أن نفهم ما نفهمه، ونترك ما لا نفهمه باعتبار أننا سوف ندرك فهمه لاحقاً! وأن نقطع ونفصل ونشكل كل شيء حسب ثوابتهم، وأنا نستطيع بمهارة أن نسير حتى العلم والأبحاث تحت وصاية معتقداتهم

ومبادئهم المحرمة على النقاش، بإظهار حقائق أسطع من الشمس كأوهام، والأوهام كحقائق متى ما دعت الحاجة! وبالتشدد والتفويض بأسلوب قاطع، والحسم والحزم بناء على فرضيات! وكأنهم شهود على الوجود وأطوار الوجود منذ البداية!

ولئن كانت الكائنات خالية من كل حقيقة تستحق الإيمان بها، ولئن كانت كل فكرة غير جديرة بالإيمان والقبول، فالوجود إذن عين الفوضى! وكيف نستطيع أن نحتمي المجتمع من النسبية حتى في المسائل الفرضية غير المحتملة، إذا ما تحكّم في العالم فهم كهذا؟ أولن يحسب جموع البشر الذين استسلموا لتيار النسبية أصدق الحقائق صحيحة بقدر صحة مضاداتها؟ وأكذب الأباطيل بقدر كذب مضاداتها؟ وبدهي أن يخضع كل شيء للتلقّي النسبي الهائم، في حال شيوع مثل هذا التفكير، سواءً في فهم الخير والشر، أو الأخلاقي واللاأخلاقي... إن الشخصية التي يحتاج إليها شعبنا أمسّ الحاجة، هي شخصية الإنسان المخلص المتحمس والمتوازن، الذي يحركه الشعور والإدراك والمسؤولية، ويهيمن على تصرفاته وأعماله التفكير في الأيام القادمة في خططه وبرامجه بقدر التفكير في ضرورات الحاضر. شخصية مهندس الفكر والروح، المنفتح على الوجود بقلبه، العامر عقله بشعور العلم، المقتدر على تجديد ذاته كرة أخرى في كل آن، المتتبع للنظام في كل وقت، والمصلح لتخريب آخر في كل لحظة...

تلك الشخصية تهزول من نصر إلى نصر، ولكن ليس لتخريب البلاد وإقامة العروش فوق خرائبها، بل لتحريك المشاعر والملكات الإنسانية، وتقويتنا بالحب والرعاية والمروءة التي تحضن الناس كلهم والأشياء جميعاً، وإعمار الأرجاء المنهدمة، ونفخ الحياة في الأوصال الميتة، لتتحول إلى حياة ودم يسري في عروق الوجود، وإشعارنا جميعاً بالأذواق الرحبية لغاية الوجود. هذا الإنسان بطبعه رباني في كل أحواله وبكل ذاته... وهو في مناسبة دائمة مع الوجود باعتباره خليفة الله. وحركاته وأفعاله كلها مراقبة... فلا

يقوم بعمل إلاّ بحس من يعرضه على التفتيش... حتى يكون الله سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به... ويكون أسلوبه مترشحا من تأثير بيانه... ويكون تحت إرادته تعالى "كالميت في يد الغسال". وإن إحساسه بعجزه وفقره أمامه تعالى هو أعظم مصدر للقوة والغنى... فلا يني ولا يفتر من الاستمداد بأحسن وجه من معين هذه الخزينة التي لا تنضب ولا تنفد.

كذلك، هو إنسان المحاسبة والمراقبة الرحيب. الخير والشر، والجمال والقبح في مرآة روجه منفصلان عن بعضهما ولكل شيء موقعه الملائم فيها، كاختلاف الليل والنهار، والضياء والظلام. إنه ساع، بكل إرادته وقلبه وشعوره، إلى اصطيد أعظم المقاصد المترتبة من حركية الوجدان، واللطائف التي توجد الوجدان. وهو في حال الإدراك بأنه "لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياها"، يتنفس القرب متقدماً على الملائكة خطوات بمعرفته، وبالمناسبة بين الإرادة والمسؤولية، وبالعلاقة ما بين القلب والعشق، وبتماسه واطلاعه الشاعر الواعي على أسرار الوجود وأسرار ما وراء ستار الوجود، وبالْحَقِيقَةِ المطلقة "بلاكم ولا كيف" في حسه.

هو قاصد في حياته الشخصية أن يبلغ آفاق الإنسان المثالي يسابق ويباري الأولياء والأصفياء في تمثله بالأوامر والنواهي الإلهية، وبشق فيه الشعرة أربعين شقاً تدقيقاً وتمحيصاً. هو فوق كل خيال في شجاعته في أن يحيا الإسلام الحقيقي، وفي تصرفه ضد كل ما ييغضه الحق تعالى، وصدوده ومقاومته إزاء ما يصيبه في سبيل إحياء ما يؤمن به. ويعجز التعبير عن سماحة معاملاته مع الناس، وعمقه في معرفة الله، وتواضعه الجم، وإحساسه بعظمة الله، وبالوجود من حيث علاقته به تعالى، وبالعشق والشوق والتعلق والاهتمام.

إنه قبل كل شيء، وبعد كل شيء، هو إنسان المعرفة اللدنية والواجب اللدني. وينبغي أن نقف وقفة خاصة عند مفهوم "إنسان الواجب اللدني".

مهندسو الروح الربانيون...

قد يطم بعضهم شفثيه استخفافاً إذا ما ذكرت القيم الأخلاقية والأعماق الداخلية للإنسان وأهمية الحياة القلبية والروحية. لكن لا شبهة أن السبيل الموصل إلى الإنسانية الحقيقية هو هذه القيم. فمهما كانت ظنون نفر منا، فليس اليوم أمام إنساننا المعاصر، الذي انطوى ظهره وحمل على حُدَاباته أثقالاً مختلفة من الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، إلاّ سبيل واحد ينقذه من الضيق والشدائد المتوالية؛ وهو عودة الحياة إلى تلك الحركيات المذكورة آنفاً. وإن تحقّق هذه الرسالة الحيوية لن يكون إلاّ على أيدي ربانيين لا يولون أهمية لأشخاصهم، ولئن اهتموا بأشخاصهم، فلا يرون خلاصهم إلاّ في خلاص الآخرين.

وعندنا - كما هو في حقيقة الإسلام - الخلاص من المسؤولية أمام الله تعالى مرتبط بالجهد والهمة في البحث عن طرق هذا الخلاص. نحن نرى سلامة مستقبلنا البعيد والقريب في أن نكون ملجأً للأرواح الأخرى، وفي ضخ النور في الإرادات الأخرى، وفي إعلاء القلوب الأخرى إلى الذرى... ونرغب دائماً إلى إشغال مكان بين الذين يتلقون الحرائق بصدورهم ويولّون للمنافع الذاتية أدبارهم. وبدهي أن الطبع الأخلاقي في سلوكياتنا وتحركاتنا، موصول بهذا النمط من الشعور بالمسؤولية المغروسة عروقها عقيدةً في أرواحنا.

نعم، إن هذا النمط من الشعور بالمسؤولية وعزيمة الهمة العالية وإرادة القيادة الإرشادية، التي تتعدى حدود فرديتنا دائماً، والتي تشكل أشدّ النويات حيوية في النظام المحتضن للعالم كلاً وجمعاً، فتصير أهم مصدر للأمان الكوني، هي الأساس الفريد لخلاصنا، كما هي صوت مؤثر ولسان بليغ يهمس بالروح والمعنى اللذين تحتاج إليهما الإنسانية جمعاء.

ولن يدرك الخلاص البتة، أولئك الذين يديرون ظهورهم للوجود كله وللنظام العام، فيهدرون أعمارهم في ظلمات متاهات الأناثية. ودع عنك إدراكهم الخلاص... فكم تسبب هؤلاء حتى في هلاك الذين أحسنوا الظن بهم. بل المشاهد أن المراحل التي تقدمت الإنسانية فيها هي مراحل تصالحها وتعارفها مع الوجود. وينبغي في الحاضر أيضاً أن يترك الذين يرمجون لمسيرة المستقبل الأناثية جانباً، ويضعوا أيديهم في أيادي كل إنسان وكل شيء بالضرورة واللزوم. وستجد الإرادات والأفكار تقويمها الحقيقي بقدر نواها لمساندة الهياكل المتكاملة والعزائم المتوحدة والمشاعر المتضامنة في أتم المعاني. فالطريق الوحيد للتحويل من الفردية إلى الجماعة، ومن قطرة إلى بحر، وبلوغ الخلود بهذه الوسيلة، هو الفناء بالذوبان في الآخرين، والاندماج بهم بالانصهار فيهم، من أجل إحيائهم والحياة معهم.

ومن مقرب آخر، أن يكون الإنسان "إنساناً" وفق المعنى الذي يجعله إنساناً حقاً، مرتبط بخضوعه لأوامر قلبه واستماعه إلى روحه، رغماً عن بدنه وجسمانيته وعقل معاشه الدنيوي. فعلى الإنسان أن ينظر إلى كل شيء وكل أحد بعين القلب، ويقيّمهم بموازين القلب المتأهله للاعتبار والتقدير، لكي يتعرف جيداً على نفسه وما حوله. ولا ينبغي أن ننسى أن الذي لا يحفظ طراوة قلبه وصفوة روحه في كل أوان، ولا يقي نقاءه وطهره كنقاء وطهر الأطفال برفقة ثرائه الذهني والفكري والحسي في كل وقت، لن يوحى بالثقة إلى من حوله ولن يجوز على التصديق والإقناع قطعاً، مهما توسع في رحاب العلم والأدب والخبرة. ولذلك لا يطمئن ولا يثق جموع الناس بنفر من السياسيين وآخرين يسوقون القوة والجبروت أمام المنطق والمحكمة العقلية والقلب ما عدا الذين يظهرون التصديق خوفاً واستسلاماً. إن الأرواح الطاهرة والقلوب الصافية قد اتبعت دائماً الفكر النزيه والسلوك السوي النابعين من القلب. نعم، القلب الطاهر المحافظ على صفوته الفطرية قد احتسب - كما في إيماءة لقول مبارك - بيتاً للحق تعالى معلوماً

بالمكنون والمكنوز. في هذا البيت يمكن الإحساس والشعور بحقيقة اللاهوت بلا كم ولا كيف بدرجة طهارة أبعادها الأخروية وسمائيتها، وبالطبع إن من قال "رأيت" أرادوا القول بالرؤية بهذا المعنى... فهذه الأرواح الصافية المطلقة عن الزمان، بلغت الفردوس -الذي يحتمل، أو حقيق، أن يدخلها الجميع في الأخرى- بَلَعْتَهُ وهي لما تنزل في الدنيا، في نواة "طوبى الجنة" داخل قلوبها، واطلعت على الكائنات في الذرة، بل تُعَدُّ واصلة إلى نقطة أبعد من ذلك، إلى أفق الرؤية.

وإن القرآن وصاحب القرآن حين يبين لنا رجل القلب، فهو أهل الحقيقة وإنسان القلب الذي يرى ويفكر ويتصرف بكليات قلبه كافة، وقيامه وقعوده رحمة، وقوله وكلامه وئام، وأحواله كلها رقة ولطافة. إن غاية خيال رباني كهذا: مواضع رحبية ومهمة مثل الانتقال بالأرواح كلها إلى التواحد الأبدي، وتقديم إكسير الخلود إلى الجميع، والمثول في أعماق ذاته، وفي العالم الآفاقي، وبالطبع في دنيا قلبه، وفي حضور ربه، متجرداً تجرداً مطلقاً عن نفسه ومنافع ذاته وهموم مستقبله. إنه حامل قلب نبوي مهتم بهموم الغير، يترفع على بؤسه البدني والجسماني، فيخطط لسعادة البشر حوله، ويرسم البرامج نقوشاً من أجل أمان وحبور المجتمع الذي ينتسب إليه، ويعتريه خفقان بعد خفقان لعذاب الإنسانية وبؤسها، وأمتة خاصة.

ولذلك فهو بطل عزيمة نبوية يخاصم الشرور التي تخنق العالم كله، وإنساننا خاصة، يقوم ويقعد مع آلام البرامج التي ينبغي إنجازها لدفع تلك الشرور، بدلاً عن الركون إلى ذهاب مغلق مفاده أن "تصوير الأباطيل تصويراً جيداً إضلالٌ للأذهان الصافية"، ولا يملّ من ابتلاع حلول العثرات غصّة بعد غصّة، ولا يكل من مداهمة العضلات طافحاً في حب جاد للواجب وحرص على المسؤولية وشعور بالإحسان. بطل عزيمة يخلق بجناحي عجزه وفقره، ويتوتر بالشوق والشكر، وبين أنينا تحت مسؤولية إحياء الانسجام العام والحقيقة.

وإنها لمسؤولية عظيمة لا تترك أيّ مسألة تدخل في إطار إدراك الفرد وإرادته الشعاعرة. مسؤولية إزاء الوجود والحوادث... مسؤولية إزاء الطبيعة والمجتمع... الماضي والمستقبل، الأحياء والأموات، الشيب والشباب، القارئ والأمي، الإدارة والأمن... مسؤولية إزاء كل إنسان وكل شيء... وبالطبع الإحساس باضطراب وآلام هذه المسؤوليات في القلب، وإشعارها عن نفسها في الروح خفقانا مجنوناً بعد خفقان؛ هو جزء من جدول أعماله اليومية، يتبارى ليحوز على الموقع الأول في السبق. وأظن أن هذا هو العزم النبوي الذي يرفع الإنسان درجات فوق درجات عند الله، ويكسب القرب من الرب، وبهذا العزم يُتوصل إلى المعراج الروحي.

وإن الاضطراب والألم الصادر من الشعور بالمسؤولية، مع استمرارها ودوامها خاصة، هو دعاءٌ غير مردود، ومنبع وافر للبرامج البديلة، ونغم أشد تأثيراً في الوجدان المخلص المحافظ على طهارته. إن كل إنسان روحي مرشح - بقدر سعة اضطرابه - لتجاوز طاقته الذاتية، بل لتجاوز طاقة جماعته التي ينتسب إليها... وقد يتحول إلى مركز محوري لطاقة وقوة الأجيال الماضية والآتية. وأنبه هنا مرة أخرى إلى ضرورة التمييز بين الذين يُحيون والذين يُحيون (غيرهم). وقد كررنا مراراً وتكراراً: أن الذين يقضون أعمارهم في إخلاص ووفاء واهتمام بالآخرين إلى درجة إهمال أنفسهم من أجل إحياء الغير، هم الوارثون الحقيقيون للحقائق التاريخية، الذين نودع أرواحنا وديعة مأمونة عندهم. أولئك الذين لا يطلبون أن تتبعهم الجماهير... لا يطلبونه، ولكن وجودهم نداء جهوري، وأي نداء! فأينما كانوا، يهرع الجميع إلى أولئك الربانيين وكأنهم مركز جذب... وقد يستقبلون الموت بسعادة وراء رياتهم.

وسيكون المستقبل أثراً رائعاً للربانيين المثليين لهذه الرسالة المهمة برؤى المسؤولية، وكذلك بمشاهد النجاح فيه. إن وجود شعبنا (والشعوب المتصلة

به) وبقائه، ومجموع الوردات لحضارة جديدة وندية، والحركية الرحبية الباعثة للحياة لثقافة ثرية، ستتفنس بأنفس أولئك الربانيين، وتعلو رايات على أكتافهم، وتُنقل على كواهلهم المتينة إلى الزمان الآتي... وأقول "تُنقل" لأنهم أمناء مُستودعون للحقائق العالية ووارثون لثرائنا التاريخي.

ومعنى وراثته التاريخ هو وراثته كل ركام الماضي، المعروف والمجهول والصغير والكبير، وإتماء هذا الركام واستحداث مركبات جديدة منه، ثم نقل ذلك كله إلى الأجيال القادمة، أصحابه الحقيقيين. فإن لم يوف هذا الوارث رسالة التاريخ المتعلقة باليوم والغد حقها من الاهتمام، فسوف يحسب مسؤولاً عن خراب اليوم وضياع الغد. وهي مسؤولية تجعله -بقياس معين- في موضع خيانة القضية والتاريخ وهدم الجسور بيننا وبين المستقبل، إذا ما وقع الوارث في غفلة وتقاوس، أو توقف للبحث عن من يحيل إليه الأداء، بل وحتى إن بهرته محاسن الآخرة الجذابة فذهل رغباً إليها. فمن الضرورات اللازمة حقاً أن نوقن بأن المستقبل لنا من حيث وجودنا وبقاؤنا، وننظر إليه بهذه العين. فمن المهم لتنشيط حركتنا أن نجعل ذلك في رأس أولويات مشاعرنا وأفكارنا وبرامجنا. وخلاف هذا تحقيرٌ وخيانة للأمة. لقد آن الأوان، بل يكاد يفوت، لكي نحمل أعباء مؤسساتنا في كل مجال مثل الدين والعلم والفن والأخلاق والاقتصاد والعائلة، ونسمو بها إلى مواقعها الحقيقية في تاريخنا. فنحن أمة ننتظر وترقب رجال عزم وإرادة وجهد يحملون هذه المسؤولية.

فنحن لسنا بحاجة إلى حسنات ونظم فكرية تستجدي من الخارج أو الداخِل، بل حاجتنا الماسة هي إلى أطباء الروح والفكر الذين يحفزون في شعبنا كله حس المسؤولية وشعور القلق والاضطراب... حكماء الروح والفكر الذين يُمكنون التعمق في أرواحنا بدلاً عن وعود السعادة المتقلبة إلى الزوال، ويرفعوننا بحملة واحدة إلى مراتب نرى بها المبدأ والمنتهى معاً وسوية.

نعم، ننتظر رجالاً يعشقون المسؤولية والقضية إلى درجة يتخلون فيها حتى عن دخول الجنة، وحتى الخروج منها لأجلها إن دخلوها... رجال يقولون: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه"^(١) هذا أفق نبوي. وإن عقلاً يجيش بأنوار تسيل من هذا الأفق، يقول متى استوجب: "ليس في قلبي رغب في الجنة ولا رهب من جهنم... وإن رأيت إيمان أمتنا في خير و سلام فإنني أرضى أن أحرق في لهيب جهنم"^(٢) ثم يخر منطقياً على نفسه بخشوع... أو يمد ذراعيه داعياً: "إلهي، كبرّ بدني حتى تملأ به جهنم، فلا يبقى فيها مكان لغيري!" فترتعش السموات بعويله وبكائه.

إن إنساننا يحتاج اليوم أمس الحاجة إلى أهل العمق الباكين من أجل آثام شعبهم، المقدمين مغفرة وعفو البشرية على مغفرة أنفسهم... والواقفين على "الأعراف" متلذذين بحظوظ أهل الجنة، فإن دخلوها فلا يجدون وسعة في التلذذ بحظوظهم الذاتية.

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ١/٢٨٥.

(٢) سيرة ذاتية لبديع الزمان النورسي، ص ٤٥٧.

الشعور بالمسؤولية

الحركة والنهوض للحملة أهم عمق للصيرورة والتواجد. السكون اسم رديف للانحلال والموت. أما ارتباط الحركة بالمسؤولية فهو البعد الإنساني الأول لها. ولا يمكن ادعاء الكمال في حركة أو نهوض لحملة من غير ضبطها بالمسؤولية.

أكثر الناس يسعون حثيثاً إلى مقاصد وغايات مختلفة. ومن الهراء انتظار خير من سعي ولهاث بغير ضبطهما بالمسؤوليات. فإذا عمل طلاب المنافع، الدائرة أعينهم كالرحى طمعاً وحرصاً، من غير توان وكلل، وخطب السياسيون في الأرجاء خطباً سحرية، وهَرَجَ الإعلام في برامج الأخبار والحوار والمنوعات الأخرى، وتنفست جهاتُ هواءَ الابتدال أيام السنة كلها، وهرول رجال يكتسون أردية الدين نحو حق التمتع بلا فتور، واستيقظت سوق الأوراق والصرف على التوقعات وباتت مع التوقعات، وبذلت بعض دوائر الدولة الفرص لبعض الأيديولوجيات، وتطلع أهل الدراية من غير اهتمام في ذهول على كل ما يقع من عظام الأمور، ومعنى ذلك أن من يسحق يغنم، ومن ينسحق يمضى في سبيله مبرراً الحال "بالانتخاب الطبيعي!" ومستسلماً وراضخاً لكل شيء باعتباره طبيعياً، فإن ما يلزم عمله يومئذ قد تعسّر وصعب، واشتد وثقل... حتى إذا نهض رجل فقال لأبطال(!) هذه الحركات والتكونات المشؤومة، أو للبؤساء المسحوقين بين أسنان هذه الدواليب المرعبة: قفوا... إلى أين أنتم ماضون؟

محض كذب إن قيل قد يحيا مجتمعٌ والحسُ فيه منعدمٌ
أروني أمة ماتت معنوياتها، ثم هم بعدها سلموا^(١)

(١) ترجمة بيت لخمّد عاكف، ديوان "الصفحات"، ص ٢٧٢. (المترجم)

فإن لم يصفعوه ولم ييصقوا في وجهه، فسيعزروه بكلام غليظ أو يتخذوه هزواً. وربما قالوا: "كل شاة تناط برجليها" أو قالوا في عدم اهتمام: "الربان الماهر هو الذي ينقذ سفينته"^(١) مستهزئين من شعوره بالمسؤولية. بل ربما نفثوا هذياناً يئم عن إنسان منفلت غير مبال: "ما همّي أن تعيش ألف سنة حية لا تلدغني!". فيخفق وجدانه النبیه مضطرباً. ومن يدري بما يصدّم فكره النقي ومشاعره البريئة في هذا القفر من شؤون وأشجان!

ليس شيء من هذا مما يخطر على قلب مؤمن أو حساس. ولكن لا يليق بشعورنا بالمسؤولية أن نقول: سفسطة وهذيان... ثم نمضي في سبيلنا... لا يليق بمسؤوليتنا ولا يأتلف معها، لأننا محاصرون -شعباً- بالعداوات وبالأعداء. وما دمنا في أسر هذا الحصار، فلا يمكن أن نحقق ذاتنا في الحس والفكر والاعتقاد والفن والتصرف الحر، وأن نحمي كرامتنا الإسلامية وعفتنا "المليّة"، وننقذ سفينتنا ونوصلها إلى بر الأمان، ونبي عالماً الخاص ونحيا كما نريد، ونكون ورثة الأرض ونصل إلى الله. فينبغي أن نفتح عيوننا فنرى الحقيقة، ونعمل بصيرتنا فنصون خواصنا المنتقلة إلينا من أمس إلى اليوم، ونطردها ما يمزغ وجودنا وشخصيتنا من دواخلنا. وإن لم نفعل، فسوف نرى يوماً نعجز فيه عن الحفاظ حتى على حالنا الحاضر.

كان الجهل والفقر والتفرق والتعصب وما يشبه ذلك، هم أعداؤنا في زمن ماض. واليوم زيد عليهم الخداع والتسلط والسفاهة والخلاعة واللامبالاة وضياع الهوية. وليعذرني هذه المرة الذين يحملون في جنباتهم قلق النزاهة الدينية والصفوة الفكرية والحماسة "المليّة"، إذ أقول بأن أجيال الشباب وقسما من أنقياء السريرة من الشيب يضلّون منذ مدة طويلة بالحماس البريء النقي، ويعيشون غدر وعذاب الشخصية الصدوق- المنخدعة، ويُغرّرون بأيديولوجيات منحرفة ما فيها إلا الكلمات المنمقة.

(١) المثل الأول يقال للنهي عن التدخل في شؤون الآخرين أو مسؤولية كل إنسان عن عمله بنفسه. والمثل الثاني لمن ينصرف إلى النجاة بذاته غير مبال بغيره. (المترجم)

ومهما انحصرت الظاهرة في شرائح معينة من الشعب، فإن هذا الانحراف الفكري والتحول والانزلاق في الشخصية يعني احتلال هذا الوطن المبارك تارة أخرى. احتلالٌ يسمُّ محمد الفاتح، ويطعن مراد خداونديكار في أحشائه بخنجر، ويقتل يلدرم بايزيد همًّا، ويقهر ياووز سليم بكفَّ الأسد^(١). احتلال فاضح يقتل روح "الملَّة" التي خرجت ظافرة بالنصر من كفاح الاستقلال، لتذبح بسيئات العصر وغفلة المثقفين وإهمال الجمهور.

ونحن حملنا على عاتقنا مسؤولية بث روح جديدة في دنيانا، مشبعة بالإيمان وحب الإنسان والحرية، وتجهيز البيئة لترسيخ الجذور المعنوية لشجرة مباركة تنمو وتزدهر أفنانها بهذه المعطيات، وتزهو حقولاً جديدة بامتداد تلك الجذور. ولا شك أن إنجاز ما تملِّيه هذه المسؤولية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأبطال يصونون مصير الوطن ويحمون تاريخ إنساننا ودينه وأعرافه وتقاليدِه ومقدساته كلها... أبطال طافحين بحب العلم، مُنشدِّين إلى الأعمار والإنشاء، متدينين أخلص من الخُلص، محبين للشعب، ومرابطين أبداً على أداء واجباتهم بشعور المسؤولية. فبهؤلاء وبجهودهم ستهيمن أفكارنا، ومحصلة هذه المفاهيم والأفكار، على حياة شعبنا... ويعلو في كل إنسان حس نذر النفس لخدمة المجتمع، ويتنفس من جديد مفهوم تقاسم الواجبات والتعاون المتبادل، وتبرز كرامة أخرى خصلة ظهور الشيء الواحد بأوجهه الكثيرة في علاقة رب العمل بالعامل، وصاحب الأرض بالزارع، والموظف برجل الشارع، وصاحب البيت بالمستأجر، والفنان بمحب الفن، والموكل بالوكيل، والمعلم بالطالب، ويتحقق كل ما كنا ننتظر منذ عصور. نحن نعيش في زمن نسبك فيه رؤانا في أفكار مثالية، ونؤمن أن مسؤولي العصر سيحققونها بتوقيت جيد حين تأزف ساعاتها.

(١) إشارة إلى دس السم ل محمد الفاتح، وطعن الصربي الغادر للسلطان مراد بخنجر في ميدان المعركة بعد نيل الأمان، وموت السلطان بايزيد هما بعد وقوعه في أسر تيمورلنك وإذلاله، ووفاة ياووز سليم بورم سرتاني متفحح في كتفه يسمى "شيرنجه"، والكلمة فارسية معناها "كف الأسد". (المترجم)

هذا هو أس رؤيانا وحيالنا منذ عصور. والشعور بالمسؤولية وأخلاق المسؤولية هو أول وسيلة لتحقيق رؤيانا وحيالنا. ولما كان السكون والجمود موتاً وانحلالاً، واللامسؤولية في الحركة فوضى ولغطاً، فلا مفر من ضبط تصرفاتنا بالمسؤولية. فينبغي شد كل جهد لنا بالمسؤولية. طريقنا طريق الحق، وقضيتنا حمل الحق، وغايتنا تحري رضاء الله في كل رفة عين. والأصل أن هذه صدقة كينونة الإنسان وحكمة وجود الإرادة. نحن نحسب أنفسنا مضطرين إلى التحري عن غاية الحياة في حياتنا، والتوصل إلى العشق في أرواحنا، والوعي بشعور المسؤولية في وجداننا، وإرشاد المستيقظين على منيع نظام أساسه وأصوله الإيمان، ومصدر قوته العشق، ونوره العلم والفن والأخلاق والحكمة... فحتسب أنفسنا عبيداً لهذه الرسالة عبودية لا انعتاق منها. وستكون بداية نهضة عالمية ثانية، هذه الجهود التي نرجو انتشارها وتطورها في استقامة وروحانية جميع الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين منذ البداية إلى اليوم.

لقد كان لكل عصر كرامة. فولدت الإنسانية من جديد بالإسلام في القرن السادس الميلادي، وعاد كثير من أقوام الترك إلى الحياة كرة أخرى بالإسلام في القرن العاشر الميلادي، وانشقت بالاستحالة شرنقة عن فراشة في "سوكود"^(١) في القرن الرابع عشر الميلادي. وأظن أن كرامة القرن الحادي والعشرين ستظهر بملاء شعبنا والشعوب المرتبطة به مكانه اللائق في الموازنات الدولية. وسيدور هذا التكون الجديد الذي يغير وجهة تاريخ العالم ومسيرته، في أفلاك الروح والأخلاق والعشق والفضيلة. نعم، نؤمن أننا بهذا الجهاد المعنوي الذي يمكن تسميته بكفاح العلم والأخلاق والحق والعدل أيضاً، سنلم شعث أشلاء "أمتنا" المباركة الممزعة البئيسة والمشردة في أرجاء الأرض المختلفة، لتجتمع الأجيال التي ظلت بلا راعٍ ولا غاية حتى اليوم في ظل الفكر، فتعيش "الانبعاث بعد الموت" من جديد في نشوة الوصل بـ "لواء الحمد".

(١) إشارة إلى انبثاق براعم الدولة العثمانية في قصبة "سوكود"، وهي من أنحاء الأناضول التركية حالياً، والكلمة نفسها اسم لشجرة فالجملة تترين بحسن الجنس. (المترجم)

من الفوضى إلى النظام - ١

منذ عصور والناظر إلى مجتمعا يرى أنقاضاً وأنكاثاً من حيث الأخلاق والفضيلة والعلم والفكر. فما زال المجتمع يبحث عن نظام وفكر بديل في التربية والفن والأخلاق. والصحيح هو أننا بحاجة إلى إرادات فولاذية وأدمغة أصيلة تحتضن الوجود بأعماقه جميعاً، والإنسان برحابه الدنيوية والأخروية، وتفسرهما، بل وتتدخل في الأشياء بعنوان خلافة الله في الأرض.

نزرعت حركات التغيير والتحول الأخيرة في العالم، القناع عن كثير من الوجوه وأظهرتها على حقيقتها. كذلك، أزاحت الغشاوة عن عيوننا إلى حد ما... فتوضحت حقيقة كنه الأشخاص والأشياء شيئاً فشيئاً. فاستطعنا أن نرى ما حصل بصورة أوضح، ونستنبط من الحوادث نتائج أسلم وأمتن... وصرنا نفهم أن ما تعرض إلى شؤم الإبعاد والترك والنسيان في هذا البلد منذ قرنين، ليس الزي والفكر وفلسفة الحياة حصراً، بل ثقافتنا "الملّية" وحسنا التاريخي ونظامنا الأخلاقي وفهمنا للفضيلة وتصورنا الفني وجذورنا المعنوية أيضاً قد تعرضت -وربما مع ضرر أعظم- إلى التآكل. فاهتزت أو اصرنا الروحية وجفت منابع فضيلتنا، وتعمقت الهوة بين حاضرنا وماضيها.

نعم، شهد عاملنا المبارك أطواراً عجيبة، فيها سكت المثقفون، وصُكّت أفواه الفكر، وظاهر أصحاب القوة والقدرة الضلالة والانفلات عن الأصول، وتعارفت الأجيال مع الأحاسيس الهامدة والآيسة والمظلمة في مهمات الحيرة وكأها جنازير.

وكم عين تنفست دموعاً بلا حول ولا حيلة في زمن أحمر يحاصره اليأس أدخنة سوداء من كل جهة، وصرخت مشاعر القلوب بأحاديث نفس في

وجه أناس لا يعرفون ما الخجل، وقالت في أئينها: "ما الرجاء من حيارى فتحوا أشرعتهم لريح الإلحاد، ومن بُلّه يصفقون لكل واحد ولكل شيء، ومن منكوبي الوجدان المعتادين على طأطأة رؤوسهم أمام القوة، ومن شرف وعزة ملوثة؟ لكن ما اهتر تززع، وما تهدم خرب، وما ذهب انقطع، ولم يحل محله شيء جديد! نعم، قد أزيل ما تحطم ولم يقم مقامه شيء، فانقلب المجتمع رأساً على عقب باعتبار قيمه. ذلك بشهادة القلق وضياح الأمان المحسوس - في عصرنا الحاضر خاصة- في أغوار قلوبنا جميعاً، حتى العقلانيين الواقعيين(!) الذين لا هم لهم إلا تحقيق مآربهم اليومية.

أرجوكم أن تتفكروا... بم ننجو من الفقر الأخلاقي والمعضلات المتشابكة يوماً بعد يوم حتى جعلت الحياة حملاً ثقيلاً وحيرة لا تطاق؟ وكيف نتخلص من نوبات أمراضنا الفردية والعائلية والاجتماعية؟ وكيف نسير إلى المستقبل في ثقة واطمئنان؟

هل نستورد أفكاراً حاملة وحيالية من هنا وهناك؟ أم بعقلية العصر التي نحاول أن نبني عليها كل شيء؟ كلا... كلا! لن يحمل هذا الحمل الأثقل من جبل "قاف" منطق كهذا المنطق وأفكاراً مجهولة النسب كهذه!

منذ سنين مديدة لم تتجاوز حملات التجديد التغيير في الصورة. فقصرت عن إدراك مقاصد الآمال والخيال، وعن أدنى غاياتها المعلنة. وظن الذين قبضوا على الزمام في القمم أن الإمساك بالفرشاة وتلطيف جروح البدن الاجتماعي و"الملي" بالأصباغ هو المعرفة والحنكة، بل ظنوه ثورة وانقلابا... وغاب عنهم كلياً النزف الباطن، ومضاعفات النزف الباطن، في الأعضاء الحيوية للمجتمع، وفي شرايين روجه. هذا ما حصل في تاريخنا القريب، باستثناء المظهر والتمثيل الخاص لأبطال كفاح الاستقلال المستمد قوته من الإيمان والأمل والعزم. هذا، مع إجهاضنا حتى للقوة والصفوة

المكنونة في هذه الحملة المباركة باعتبار منطلقاتها. ففسير أن تتحقق وحدة كالتى تحققت أو نهضة وحيوية كالتى حصلت.

فالحاصل أن مجاميع الناس التى انفصلت عن بعضها وتوسعت الهوة بينها في السنين الأخيرة، إن لم تقع في فقر مدقع في حياتها الفكرية وروحها وجوهرها، فقد وقعت في الاغتراب عن بعضها والاحتراب فيما بينها كالذئاب. فالبياض عند بعضهم سواد عند غيرهم، وما يدعو إليه بعضهم يخالفه غيرهم، والبديل المقترح من بعضهم داعية هزيمة عند غيرهم، وصلابة بعضهم تعصب عند غيرهم. ومع هذه السلبيات، تخيل مدى هذا الاحتراب، أو قل عراك العميان، ولا قسطاس يرتضيه الجميع لمعرفة أيهم أدنى إلى الحق وأقرب.

ولذلك، نحن اليوم في أمس الحاجة إلى طريق يوصلنا إلى الحقيقة والفضيلة، ومنهج تفكير لا يخدعنا، وموازين لا تضلنا. والواقع أن الوجدان والقيم الأخلاقية مصادر نور تكفي لحل كثير من المعضلات. لكن في أيامنا هذه، الوجدان جريح والقيم الأخلاقية شتات. فهذان المحركان قد أجتزأ من الجذور وجُففت ينابيعهما.

لا ترتقي الأخلاق بالعرفان ولا الوجدان

حسنُ الفضيلة من خشية الله في الإنسان

فهب أن الخوف من الله في القلوب قد غاب وانحسر

فلن تجد إذن للعرفان والوجدان ذرة من أثر^(١)

وزد على ذلك هشاشة الإرادة وضمور المحاكمة العقلية ووحشية الأحاسيس البشرية وتعطشها للدم كالتنين، لتعلم هول الكابوس الذي نعيشه.

فمن الضرورة إذن أن نبدأ العمل بإعادة النظر في عناصر محاكمتنا الأساسية، وتمييز الخط الفكري المنطقي، وإيفاء حق الإرادة، وإعداد جيل

(١) ترجمة بيتين لمحمد عاكف، ديوان "الصفحات"، ص ٢٧١. (المترجم)

عزوم بل أجيال. فلنقر أولاً بمراعاة الأسباب، لأننا نعيش في عالم محاط بها. نحن نعيش في عالم الأسباب. فإهماها محض "جبرية"، وضلالة بالحاصل. وليست مراعاة الأسباب وحدها، بل العناية بالمناسبة بين السبب والنتيجة (قاعدة تناسب العلية) من أهم لوازم التكليف.

فإن لم نعين أسس الأفكار المضرة والتيارات المفسدة، بمشاعر مسؤولية جادة لنقاومها منذ اليوم، فسوف نرى في المستقبل أبعاداً مختلفة للبؤس الأخلاقي والنكبة الاجتماعية والانحرافات الأخرى.

وليس الحنيك من ينتبه إلى النكبة والبؤس بعد ما تظهر النتائج عياناً، بل من يجزم بما سيقع وبأي سبب وسياق من قبل الوقوع. ومن العسير الادعاء بأننا أبدينا فراسة كهذه في تاريخنا القريب. أما أن نزعم بأننا أوفينا حق الإرادة فكلاً! بل إنساننا في هذه المدة المدهمة ظلمة يشك حتى في إرادته الذاتية وفكره وعزمه... بل ما يفتأ يبحث عن إرادات سامية ومدهشة لتدير شؤونه. والأدهى والأمرّ توهين الشخصية وأسر العزائم في أصحاب المشاعر النقية والوجدان الطاهر بإيحاءات من قبل المفكر فلان، والعالم إعلان والدولة الفلانية! ثم بمرور الزمان، صرنا نحكم فلاناً وعلاناً في تفكيرنا وسلوكنا، فأصابونا بأنواع من دوار الرأس وازورار المحاكمة وانحراف الملاحظة وانزلاق الشخصية. فأصبحت الأرواح المستسلمة تمام الاستسلام خاصة، بأعطاب رهيبية من المحال إصلاحها. وكان الأصل أن لا نؤمن أو نرضى بإرادة ما حققنا فيها ولا محصناها، ما عدا الإرادة الإلهية.

يقول ديكارت: "لا قيمة للفكر ما لم يتمتع بالحرية". أما كان ينبغي أن نفكر على الأقل مثل ديكارت لتخليص أرواحنا من نظم التفكير السكولاستيكية البالية والمتعنتة في معظم جوانبها. ولكن هيهات!

يجب على الأجيال المنورة آفاقها الدنيوية/الأخروية، التي ستعين معالم تكوّنت يبدو أن لا فكك من حدوثها في العالم في السنوات القادمة، أن

تعيد النظر في الأفكار والمعادلات والأنظمة، الواردة إلينا من الخارج أو المُشكَّلة في الداخل، وتطهير المجتمع من "لوثيات" التغريب،^(١) وشدهً بجذور معانيه الذاتية... وذلك حتى يستطيع الحفاظ على جوهره وشخصيته، ويتقدم إلى مستقبله على خطه الذاتي أثناء التعايش الحميم مع العالم... وحتى يطلع على التفاف الماضي بالحاضر إذ يتقدم، فلا يشيح بوجهه عن الماضي لأنه قديم، ولا يقبل على كل ما يظنه طرياً من غير بصيرة لأنه جديد. إن أبرز خصال جيل الضياء هذا، أن يحيط علماً بشؤون اليوم والغد، ويفهم أن ما ينبغي أن يعلمه ليس منحصرأً بما نعرفه نحن، ويجهد في استيعاب الحقيقة بترشيحها من مصفاة العقل والمنطق والمحاكمة في دفء أنسام الإلهام، إلى جانب مكتشفات المختبر.

ومن المهم أن نعرف جيداً تاريخنا القريب، وأبطال التاريخ، لكي نحقق تطوراً وتغيراً كهذا. فنعرف الأسباب والشخصيات المؤثرة في تكوين تاريخنا الحاضر، ومن آثار عشقٍ وحماسٍ التواجد والتكوّن مُجدداً في صدر هذه الملة... ومن لحنٍ نشيد الروح "الملّية"، ومن أبناء الوطن أنشدها؟ فأظنّ أننا سندرك جيداً ما ينبغي أن نتخذه مبادئ، ونستطيع أن نضع برامج واضحة للغد، بعدما أن نفهم ما ذكرناه فهما دقيقاً... ثم نسعد بالسير في درب الشجعان الذين يحتفظون في صدورهم بحيوية الفكر والقضية والعشق وأخلاق التسامح.

(١) المقصود مما تلتخ بالمجتمع من آثار الاغتراب عن الذات، وليس "التغريب" هنا منسوباً إلى الغرب حصراً.

(المترجم)

من الفوضى إلى النظام - ٢

إن الانسجام بين الأشياء والحوادث جبري واضطراري، والنظام بين البشر إرادي، ومصدره الأعظم هو مخافة الله ومهابته. والنظام اسم جامع للأمان والاطمئنان والانسجام الاجتماعي ورجاء المستقبل الزاهر. فلا يُنتظر الأمان والانسجام من الفوضى، ولا المستقبل والعطاء من اختلاط الحابل بالنابل.

وقد يبدو لأول وهلة أن النظام أثر من آثار الإرادة البديهة والعقل المجرد. لكن عقلاً لم يدخُل في طاعة الروح، ولم يجتث جذور الالتفات إلى الشر، ولم يُعلِّ ميول الخير فيه إلى عنان السماء، كثيراً ما ينحرف إلى الفوضى.

النظام يسود دائماً ومنذ خلق العالم فيما عدا الإنسان من الكائنات. الانسجام في حركة الذرات، والرونق في وجوه الزهور، والتآلف والتوازن بين الموجودات الحية وغير الحية، وغمزات النجوم في صفحة السماء الفائضة في قلوبنا شعراً وعواطف، والمعاني المنسوجة خمائل على الأغصان والأوراق والأزهار، وأنفاس الروح في الحياة... نظام فتان يتحكم في كل مكان وكل شيء.

نعم، إن تأملَ الوجدان لحظةً واحدةً في كتاب الوجود فأبصرَ، لشهد في كل مكان النظام والانسجام فواحاً، وغنىً في الجمال والمعاني مدهشاً. ولا تمس الحاجة إلى تحسس شديد الرهافة، فالقلب المشحون بشيء من المشاعر يحس كل لون وصورة وصوت ونفس شعراً ونغماً متلوناً بألوان اللانهاية، في الرعد المهيب كما في تغريد الطيور وزقزقة العصافير، وفي وجوه الأزهار الفاتنة كما في أضواء صفحة السماء الساحرة. ومن يدري ما يشهده الذين يتقدمون خطوة إلى الأمام في فيزياء الوجود وكيميائه وحياتياته وفضائياته.

فكل شيء يقول: النظام... الانسجام... وكل شيء ينادي بالمعاني
الرحيية في روح الوجود. كل الأشياء: من همهمات البحر إلى خوف
ضربات القفار الموحشة على أوتار أحاسيسنا، ومن السكون الوقور للتلال
إلى شواهد ذرى الجبال، ومن دوي البحار الدائم إلى نعمة خمائل اللانهاية
المرففة في أعماق السماء.

فكيف طرأ اللانظام -الذي نسميه الفوضى- على الأرض، والنظام
ينبجس في كل مكان وفي كل شيء؟ لقد عرفت الأرض الفوضى، ومن
حلفها للأخلاقية، مع بني البشر الذين لم يسلموا طوع عقولهم لله، ولم
يكبحوا جماح إرادتهم نحو الشر، ولم يغنوا فيض مشاعرهم نحو الخير.
الإنسان مخلوق، أنواعُ رغباته مفتوحة، وثرغرائه واسعة لا تقارن بما في حي
آخر. فمن المعلوم أن في كل ثغرة من ثغراته، كالحرص والحقد والكره
والغضب والعنف والشهوة، بُعدٌ موجي مختلف القوة من نزعات التخريب
ومبول العبث ودوامات الفوضى. ولا مفر من سقوطه في برائن نتائج غير
مرضية ما لم يضبط ويُقيّد رغباته السيئة هذه بتربية حسنة، فيسمو
بأحاسيسه الإنسانية، ويستجيب للعقد الاجتماعي الضمني المكنون في
وجدانه بخواطر الرغبة والطلب، والفرح والحزن، والحق والحرية، مع
احتساب وجود الآخرين.

ولا بد أن تكون التربية التي تسمو به من درجة إنسان "بالقوة"^(١) إلى
إنسان "بالفعل"، ذات أفقٍ لاهوتيٍّ ومحورٍ وهيي. فينبغي أن تغذى ثقافتنا
الذاتية بورود حدائقنا وعصارات جذور معانينا وأرواحنا، لكيلا ترفض من
قَبْلِ الوجدان الاجتماعي العام والشعور التاريخي... وينبغي أن يتحقق العقد
الاجتماعي في أرفع درجة حسب ظروف العصر في إطار ملاحظات الحقوق

(١) المقصود من القوة هنا حال الإمكان والكمون، فإذا تحرك من الإمكان أو الكمون أو المكنون إلى الحدوث
أو الظهور فقد تحول من القوة إلى الفعل. (المترجم)

والحريات، لكيلا تفقد قوتها وشدتها، وتوقيرها وقيمتها، في شباك التعارض والتساقط الذي تعيشه مختلف القطاعات الاجتماعية، أو في الدائرة الفاسدة للتحديد الناجم من التناقض. وليس المقصود من العقد هنا سناً إجتماعياً محتوماً بتوافق الرضاء المتقابل في أسفله. بل المقصود تعاقد الوجدان المتيقظ إزاء القيم الإنسانية على عقد مرتبط ومحدد باحترام مفاهيم الحق والحرية وحب الحقيقة.

وإن البناء القلبي والرحابة الروحية للفرد، وتحول إيمانه ومعتقداته إلى جزء من طبيعته، يُعَيِّن حدود هذا العقد وإطاره. وبهذا الوجه يكون العقد الوجداني معادلاً لمستواه الإنساني. والمجتمع الذي أفراده قد تجاوزوا حدود جسمانيتهم وعاشوا حياتهم القلبية والروحية، هو مجتمع أمودج للنظام. هذا النظام في عالم الإنسان يتصف بالديمومة والأمل في المستقبل، لأنه بُعدٌ من الانسجام الكوني المحيط بالوجود كله.

الدولة في علمنا كريان سفينة مهيمن على القيادة في أهم المراكز الحيوية لكل المتكون من أجزاء توحى بهذه الأخلاق والفضائل. وواجب قبطان كهذا هو أن يستفيد وقيّم العناصر التي تحت تصرفه بأحسن وجه، وأن يوصلهم إلى الهدف من غير اصطدام بدواليب الحوادث، وذلك بالتأليف بينهم وبين نظام الكائنات. ولا يتصور مجتمع سليم ودولة راقية من أفراد حُرّموا الفضيلة وجموع تحت إغواء اللاأخلاقية. وكذلك، الأمل في المستقبل من ركام الفوضويين المعتلين بأمراض عديدة من كل جانب ليس إلا انخداعاً. ومهما كانت الأسماء والأشكال، فإن الأمل في الحصول على شيء باسم الإدارة والأمن في خضم هذا الركام البشري المعزول عن السلاح أمام حظه الأسود، لا يزيد على أن يكون محض خيال. وأما انتظار الدولة والسلطة منه فهو سلوان كاذب لا يقوم على سند. فلا يمكن أن تتحقق الدولة والسلطة إلا بالقصد إلى فكر سامٍ يمنحهما الحياة في المجتمع، ويغذيهما، ويرمجة كل شيء

موجبه والالتفاف كخيوط المغزل حوله. وتلخيصاً، احتساب "الواحد الأحد" في كل حملة، وفي كل جهد.

نعم، ينبغي أن يجهز ويرمج كل فرد وكل وحدة حياتية حسب مقصود رفع الأمة إلى الذرى... حتى لا تفسد الحسابات والمنافع الضئيلة المنعقدة على الأشخاص وثامً الانسجام العام، وحتى لا تتموج الجموع البشرية المتنوعة رغماً عن ذاتها كأمواج البحر فترتطم ببعضها وتتبعثر. ولقد تحددت هذه الغاية المأمولة بصورة رائعة في زمن سابق بفضل هيمنة روح الإسلام على الحياة. فَتَحَقَّقَ المسيرُ إلى الذرى وكأنه فعل طبيعي في الحياة، وذلك بجعل الأفراد والوحدات المكونة للمجتمع أركاناً ومستندات للنظام.

إن إعادة النظر في تصوراتنا عن النظام، وتحديد الإيمان بأن إرادتنا هي التي ستحمل الانسجام الإلهي في الوجود إلى عالم الإنسانية، وسحب التوازن الدولي إلى هذا الفلّك، هو أجلُّ هدية تقدمها الأجيال المعاصرة إلى عوالم المستقبل الآتي. وأظن أن لدينا ما يكفينا لهذه الرسالة المهمة، إذا ما مَحَصْنَا إرادتنا كرهة أخرى، وفحصنا مقامنا عند الله، وعيّننا غاياتنا "المليّة"، ورسّنا استراتيجيات وسياسات مكيّنة، وشعّلنا حركات موفورة في أيدينا.

القضية الكبرى لشعبنا

إبان ترحح العالم كله نحو الربيع في هذه الأيام، يتفق الجميع على أن المستقبل سيكون خيراً على الرغم من معوقات بسبب الوضع التاريخي. وجدير بنا أن نطلع على حال الذين يضغطون على هذا "التكوين" العالمي بعزم وإرادة وقدرة عالية. ولا شك في أن من واجب كل مثقف أن يفكر ملياً في مستقبل وطننا وشعبنا. لكن الشك فيما إن كان الجميع يحسون بمسؤوليتهم هذه أم لا. الثابت عندي هو أن نفرأ قليلاً في هذا الوطن يقومون ويقعدون منذ سنوات مديدة حاملين بالمستقبل ومضطربين، على أمل بأن الطرق الوعرة ستوصل إلى الممهدة في يوم آت.

هذا الوطن، وهذه الأرض، التي رويت منذ زمان بدماء ملايين النفوس المضحية، تعيش اليوم مع كثير من أبنائها الأوفياء حماس العبور من الماضي إلى الآتي... طافحين بالرجاء والأمل وممسوسين بقشعريرة حمى الارتقاء بشعبهم. فترى إحدى يديهم ورجليهم منشغلة بالعمل اليومي، وأخرها منشغلة في تجهيز الخطط والبرامج للمستقبل، بل تجدهم قد وهبوا أحاسيسهم ومشاعرهم لإمرة فكرهم ودعواهم. ولا بأس أن نقول بأن التاريخ التليد المجيد، والشعب المحظوظ الذكي، الذي حمى وحفظ قضيته الكبرى منذ ألف عام، فطورهها وصورها حسناً وشكلاً، يحس بالتهاب جذوتها في الأرواح كرة أخرى بوازع الحنين الزمن الحاد. فإن كثرة من الجيل الجديد يبدون وكأنهم رموز هذه القضية، ومثلو هذه الرسالة، بفيض مشاعر الوحدة والتضامن، والعزم على الرقي بشعبهم فوق شعوب العصر. وكأن مآل المستقبل إلى أن يكون سرادقاً أبدياً لهؤلاء، ما لم تهب عاصفة مضادة لا تبقى ولا تذر.

هذه القضية بسطت أجنحتها الوارفة على يد أعظم الإسلام الأوائل،

فكان الأمويون والعباسيون، ثم اكتسبت قيمة ومرتبة مختلفة مع السلاجقة، وصارت أخيراً مع العثمانيين مسألة عظيمة وسامقة، ثم أصيبت بنكبة مريرة في مرحلة معلومة. لكن اليوم نشهد سياق عودة الحياة من جديد إلى القرية والمدينة، والعائلة والدولة، والشارع والمدرسة، والفن والعلم، والعمل والأخلاق، ونرى رفرقة خمائل القضية في كل صوب وناحية منذ الآن بوفاء كوفاء الفجر، وعلى مرغمة كل عائق، وبفضل الذين حفزوا الخارطة الروحية للوطن بخفقات قلوبهم، ولوتوها وسقوها بدموعهم. ولئن جاز العديد من خداع الفجر الكاذب، فإن شهادة أصدق الشهود على شروق الشمس قريباً هو الفجر الصادق في الأفق نفسه.

وعلى الضد من الحرص على المادة، وحب المقام والمنصب، والرغب إلى حياة، والضعف أمام الشهرة، والخشية من فوات الدنيا، وما يشبه من العوامل التي حلت محل قضيتنا الروحية والفكرية، وعلى النقيض من تقديم كل متروك ومنبوذ، نحس اليوم بداية زحزحتها عن مكائنها وإشغاله بكل ما محوره الروح والمعنى. فرى ظهوراً واضحاً لورثة قيم الماضي كلها من المثليين السامقين للعلم والفن والأخلاق والفضيلة، أو المرشحين لمثل هذا التمثيل، فنجدهم حضوراً محل صخابي الأمس بدعاوى إنقاذ الوطن والصعود بالبلاد إلى مستوى الغرب، ومرائي الاهتمامك في العمل بأفكارهم الغرة وتخيلاهم الحاملة ولا شيء إلا الجمعجة.

وما زالت المعارك دائرة في ميادين للسياسة، وساحات للمصالح، وممرات للمنافع... وما زال قوم يمنحون نصيباً للأطماع والرغبات ويوقعون الشعب في حيص بيص بادعاء إنقاذ الوطن وتثقيف الشعب والارتقاء بالوطن... والهذر بشعارات زائفة أخرى من أمثالها. لكن أرجوكم أن تدلوني على زمن لم يكن فيه من يشبه هؤلاء! فهم موجودون في كل زمان. وسنجدهم غداً كما نجدهم اليوم! فالتاريخ هو تاريخ الذين يتشائمون ويفترسون وينصبون

الفخاخ ويخونون ويفترون الكذب، كما هو تاريخ الصالحين والطيبين. وهل من حاجة إلى الإسهاب، إذ يكفي أن نطلع على ماضينا القريب لنمتلئ رعباً؟ فكم من روح اغتيلت بشعار الديمقراطية! وكم من شرائح اجتماعية أوقع بينها فصارت بعضها ذئاب بعض! وكم من مرة سقيت قلوبنا بالحقد والبغض والكدر!

فلا نأمل أن تختلف أعمال شرائح من المجتمع بنوعها وطبيعتها اليوم أو غداً عن أمسها. ولن يخلو أنزله مجتمع وأمثلة طريقة من أرواح مظلمة، حادعة تفرق، ومستغلة تسحق، ومُبدلة لأفئتها المضللة تنجح في ستر أنفسها... وكما كانت في الماضي. لكن الواقع يبشر اليوم بوجود بشرٍ وافر وجهدٍ زاخر يفوح طيباً ملء الدنيا.

واليوم، هذا النفير التربوي بأسمائه وعناوينه المتنوعة، وهذا الجهد المنصرف إلى الحب والتسامح والحوار، همّة مهمة في سبيل الملمة شعث المجتمع وتحريك مصادر قوته المعنوية... همّة تفي بإنقاذ سفينة الشعب الجالحة بالساحل، على أيدي أجيال مؤمنة مشدودة الأوتار بالميتافيزيقي الغيبي. إن تلك العوائل التي فقدت فلذات أكبادها فوق مساحة واسعة في زمن مضى، ممتدة من اليمن إلى البلقان، ومن صحارى العرب إلى سهوب آسيا، استدركت ما فقدت بفضل كفاح الاستقلال والاستقرار، فشبت آمالها بالقرار على بناء دُنيا جديدة. لكن أجيال اليوم التي تهرأت روحاً وشخصية وانتقص الشيء الكثير من مجموع قيمها الإنسانية أخلاقاً وفضيلة وفكراً وفناً بصورة متشابكة، ستشهد "الانبعاث بعد الموت" في ظل الاستقلال الروحي والاستقرار الفكري.

كان القرن التاسع عشر والعشرين عصر تفككنا وتراجعنا. ولم نتحسس زمناً طويلاً الأسباب الحقيقية لهذا التفكك والتراجع، أو قل إن شئت: حرقت الأفكار بهذا الشأن قصداً وعمداً... ولذلك شهدنا مظاهر هائلة من

الرجعية في الدين والعلم والفن والإبداع، حتى إن بعض التيارات المتنافسة في الإطار الفكري، قد تحولت إلى تيار للإلحاد والإنكار تحت تأثير أحلامها الموهومة وحيرتها وشدها. بل ظهرت "موضة" التشدق بالعلم والسفسطة بدلاً عن الدهاء العلمي، والتمويه والتضليل بدلاً عن الثقافة، والتشويه والتلطيخ بدلاً عن الكفاح. وناضل قوم يحسبون الحيلة مهارة نضالاً لا هوادة فيه من أجل هدم الحقائق التاريخية بالافتراء والتزوير والكذب.

ثم انظروا ما أروع جلوة القدر، إذ إن تلك المحركات التاريخية وجذور الشعب المعنوية لا زالت قائمة على قدميها ومئاتها، والذين سقطوا وولوا الأديار هم أولئك!

فإن هذا الشعب الذي يستيقظ مرة أخرى على استقامة خط النبي ﷺ، يترنم بأنشودة الصيرورة والتواجد الجديد مع أنسام الربيع الغض، كالزنابق إذا انبثقت من الأرض رقعة فرقة، وإذا استولت على الأرجاء ناحية فناحية. نحن اليوم نرى أنفسنا - وإن كان إلى حد معين - أمضى عزمًا وأرصن قراراً، إذ نستمد من الرجاء والانشراح الحاصل بالعودة إلى الذات والعتور عليها. ورجائي أن يكون كل جهد وهمة، وكل قطرة دم، بعد الآن كما كان من قبل، شفاءً لجروحنا التي بدت مستعصية على الدواء، وضياءً للمستقبل الذي بدا مظلمًا في عيون البعض منا.

وإذ ندخل إلى عتبات القرن الحادي والعشرين، فإن مستقبل بلادنا والبلاد المرتبطة بشؤوننا منوط بعُقبان جيش النور ذات أجنحة الضياء الذين يُعدّون ممثلين سامقين للعلم والفضيلة والأخلاق في أيامنا، والذين نذر أكثرهم نفسه للتربية والتعليم. وستكون هذه الأجيال المباركة الرائدة - إن شاء الله تعالى - أصواتاً من النور وأفكاراً من الضياء تصفي حساب شعبنا مع العصر، زيادة على ريادتها في اكتساب قيمنا التاريخية مجدداً.

إن قضيتنا وغايتنا في الصيرورة والتواجد لا تماس لها ولا تلامس مع القوة

العمياء مطلقاً. فنحن بملاحظتنا لحكمة وجود القوة المستسلمة للحق، لنا مفهوم لإحقاق الحق يتفق مع فكرنا الذاتي الرحب، ومتلقياتنا الفنية الأنفس من النفيس، وتدقيقنا الأدق الذي يشطر الشعرة أربعين شطراً. هذا إلى جانب احترامنا لضرورة التكنيك والتكنولوجيا، وألزمية الصناعة وعاجليتها، وعلو قيمة العلم فوق القيم، وإيماننا بالأهمية المطلقة لتغذية وطننا بكل ذلك، وبضرورة تحفيزه وإعانتته في هذه المهمة الصعبة. ولذلك نحن اليوم في أمس الحاجة إلى مرشدين ذوي أدمغة متأهلة وأفكار رحيبة وآفاق واسعة، يقيمون هذه الموازنات لإنساننا، ويرتقون بشعبنا إلى ذرى الفكر، ويقودوننا إلى جذور معنوياتنا الذاتية، ويطلقون أرواحنا المشتاقة إلى المعالي نحو اللاهياية.

إن هذا الوطن بحاجة إلى أبطال شجعان من حواربي العلم والأخلاق والفضيلة المحصنين بالإيمان والأمل، الطافحين بالعشق والحماس، المنسلخين من الأغراض المادية والمعنوية والدينيوية والأخرووية، أكثر من حاجته إلى الأحزاب والتعصب الحزبي. وإلى حين التقائنا بهم واستسلامنا لهم، أظن أن غربتنا وأسرنا المتمازجين سيستمران، وإن كان بشكل نسبي. أدعو الرحمن الذي لا نهاية لرحمته أن يغيثنا بأولئك الخالدين الناهلين من منابع "الخضر"، الحاملين كؤوس الحياة لنا في أيديهم، والذين وجدنا السلوان بأماراتهم وعلاماتهم البادية في الآفاق، ونحن نترقبها منذ سنين.

الأجيال المثالية

في هذه الأيام المطلّة على أيام الجبور، إذ يستنشق فجرها أنفاس العيد، نجد في الواقع نوبات مرض ومعضلات تبدو مستعصية على الحل. وإن العلل الاجتماعية، والأمراض "المليّة" والآفات الطبيعية، وما يشبه هذه الأزمات التي تستشري في جسد المجتمعات، لا تعالج بتدابير يومية قصيرة الباع. فإن معالجة أزمات واسعة الآثار كهذه، منوط بشيوع البصيرة والعلم والحكمة في المجتمع. وعلى نقيض ذلك: الاشتغال بمعالجتها بسياسات المناورة اليومية التي لا غاية لها ولا أفق فيها، ليس إلا هدرًا للزمن. ونعلم من أمسنا ويومنا أن رجال الروح والمعنى والبصيرة قد حلّوا عُقد أعصى المعضلات والأزمات بيسر لا يستوعبه خيالنا، وذلك بسعة آفاقهم وعلو همهم، وبتحريك قسم من مصادر قوة اليوم لحساب المستقبل. وكثيراً ما حسبنا تدابيرهم الفذة فوق قدرة البشر وأصابنا الدهش والشّدّه منها. والواقع أن ما قاموا به هو ما يقوم به كل موفق من الرجال... ألا وهو استنفاد كل الطاقات والقدرات التي وهبها لهم الحق تعالى وبأحسن وجه مفيد.

نعم، أولئك ينشغلون بحساب الغد مع اليوم قياماً وقعوداً، ويستعملون الإمكانيات والحركيات الحاضرة أحجاراً لإنشاء الجسور الموصلة إلى الغد، ويجدون في حناجرهم غصص نُقل الأيام الحاضرة إلى الأيام القابلة... يتلعون حسابات هذا النقل غصة بعد غصة، لأن حل عقدة المعضلة مرتبط بتجاوز الزمن الحاضر، بل بالتححرر من قيود الزمان... إلى درجة النظر إلى الماضي والحاضر والقابل، والقدرة على تحليله وتقويمه، بالصفاء والنقاء نفسه. هذا الفكر الرحيب الذي يعني احتضان الغد منذ الآن، وفهم محتوى المستقبل روحاً ومعنى، سمّه إن شئت "مثالية". لكن لا يُتصور أن يتغلب من لا تتسع

آفاقه هذا الاتساع على معضلات ومشاكل كهذه، ولا أن يعِدنا بشيء ذي بال باسم المستقبل. إن الفخامة والعظمة والحياة الصاخبة لفرعون ونمرود ونابليون وقيصر وأمثالهم، لم تقدم شيئاً باسم المستقبل - مهما كبرت أعمالهم في عيون قوم يحسنون الظن بلا تمحيص - بل محال ذلك، لأنهم وضعوا الحق تحت إمرة القوة، وشدوا الروابط الاجتماعية حول المنافع، وقضوا أعمارهم عبيداً للنفسانية عبودية لا ترضي عتقا.

والحال أن الذين جعلوا الأناضول وطناً، وابتداءً من الخلفاء الراشدين، حلفوا آثاراً تجتاز باعتبار نتائجها الدُّنى لتصل إلى العقبى وتتحدى العصور، في نظر الذين لا ينخدعون بالخسوف والكسوف المؤقت. نعم، عاش هؤلاء عمراً زاحراً ثم رحلوا، ولكن لن يغادروا الصدور التي يحيون فيها بذكرى مآثرهم الجميلة. وما زالت أرجاء بلادنا تعبق بروح ومعاني ألب أرسلان وملك شاه والغازي عثمان والفتاح، وتسيل الآمال والبشرى من غايات خيالهم وأملهم إلى أرواحنا.

لقد سحق القيصر "عقيدة روما" من أجل هواه ورغبته، وحبس نابليون آمال فرنسا الكبرى في شباك أطماعه، فقتلها، وافترس هتلر أحلام ألمانيا الكبرى بمغامراته، ففضى عليها بالموت. لكن فكر هذه "المللة" المتفتح على الديمومة والتمادي، والمتصفة بطولائه بالتكامل والاستمرارية، بقي مصاناً من كل إسفاف، ومعزراً كراية تفدى بالأرواح، سواء في الانتصار أو الانقهار. الفاتح اجتاح استانبول تحت تلك الراية ودوى صرخة في آفاق الغرب... وأن أنيناً. والقانوني رحل إلى "الأبعاد" مائلاً عينيه من خفقات ذلك اللواء الوارف على سفوح الغرب. وأبطال "جناق قلعة" كتبوا بدمائهم ملحمة مثل ملحمة "بدر" باسمه، ووفى ابن الأناضول دَيْن الوفاء الأخير له، وهو محاصر بألف قحط وقحط، فزأَرَ كَرَّةً أخرى زئير قلب التاريخ المجيد: "أبدية المدة!.." (١)

(١) يومئ المؤلف بـ "أبدية المدة" إلى معان ثرة مكونة أو ظاهرة، ذات أبعاد عديدة. ولعلنا نفيد في إيضاح

يَبْلُغُ الْفِكْرُ عَلَى يَدِ رَجُلِ الْفِكْرِ مَقَاماً فَوْقَ الْمَقَامَاتِ، وَيَصِيرُ سِحْرًا لِلظَّفَرِ بَعْدَ الظَّفَرِ، وَلِلنَّجَاحِ بَعْدَ النِّجَاحِ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُمَثِّلُو الْفِكْرِ أَهْلًا لِحَمَلِهِ، فَيَبْعُدُ ذَلِكَ الْفِكْرُ أَنْ يَكُونَ رَايَةً، وَيَغْدُو رَمزًا صَغِيرًا يَجْمَعُ حَوْلَهُ سَفَسَافَ صَيِّحَاتِ الْمَطَامِعِ الدَّنِيئَةِ. إِنْ رَموزًا صَغِيرَةً كَهَذِهِ قَدْ تَجْمَعُ حَوْلَهَا أَوْلَادُ الْأَرْقَةِ وَتَقودُهُمْ إِلَى أَهْدَافٍ وَغَايَاتٍ مِنْ لُعبٍ. لَكِنها لَنْ تَرْوي غَلِيلَ الْمُشاعِرِ فِي أَعْمَاقِ شَعْبِنَا.

إِنْ رَجُلِ الْفِكْرِ بَطَلَ لِلحُبِّ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ. فَهُوَ يَحِبُّ اللَّهَ حُبًّا كَحُبِّ مَجْنُونٍ، فَيَحْسُ فِي ظِلِّ أَجْنَحَةِ الحُبِّ هَذَا بَوْشَاجٍ وَثِيقَةً تَرْبِطُهُ مَعَ الْكائِنَاتِ. فَيَحْضُنُ بِشَفِيقَةٍ كُلَّ إِنسانٍ، وَكُلَّ شَيْءٍ... وَيَضْمُ إِلَى صَدْرِهِ إِنسانَ الوَطَنِ بِحُبِّ يَبْلُغُ حُدَّ العَشْقِ... وَيَداعِبُ وَيَشْمُ الأَطْفالَ كِبِراعِمِ لِلْمَسْتَقْبَلِ... وَيَنْفِثُ فِي الشَّبَابِ الاِسْتِحالَةَ إِلَى إِنسانٍ مِثالِي، إِذْ يَبارِيهِمْ فِي بُلُوغِ المَقاصِدِ السامِيَةِ... وَيُشَرِّفُ الشَّيْبَ بِأَخْلاصِ التَّوْقِيرِ وَالاحْتِرامِ... وَيَفْتَحُ سَبِيلًا لِلحِوارِ مَعَ الجَميعِ... وَيَقارِبُ بَيْنَ سِرائِحِ المِجْتَمَعِ المِخْتَلِفَةِ مَدَّ جَسورِ مَبْتكَرَةٍ فَوْقَ المِهاوِي السَحيقَةِ الفاصِلَةِ بَيْنِها، وَيَضْطَرِمُ حَرًّا مِنْ أَجْلِ المِلاءِمَةِ التامَةِ بَيْنَ السِرائِحِ المِتوافِقَةِ نَسبِيًّا.

وَرَجُلِ الْفِكْرِ الحَقِيقِيِّ، هُوَ مِنْ أَهْلِ الحِكمَةِ أَيْضًا. فَهُوَ مِنْ وَجْهَةٍ يَسْتَوْعِبُ كُلَّ شَيْءٍ بَدنِيَا عِقلَهُ المِحيطَةَ سائِحًا وَمَسْتَطْلَعًا، وَمِنْ وَجْهَةٍ أُخْرَى: يَزِنُ كُلَّ شَيْءٍ بِمِوازِينِ القَلْبِ المَقْدَرَةِ حَقَّ التَّقْدِيرِ، وَيَمْرُها عِبرَ مِقايسِ الحاسِبَةِ والمِراقِبَةِ، وَيَعجِنُها فِي مِعجِنَةِ المِحاكِمَةِ، وَيَصوَرُها، وَيَقارِنُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بَيْنَ ضِياءِ العِقلِ وَنورِ القَلْبِ كَفِرْسِي رِهانٍ فِي المِضْمارِ.

بُعد من الأبعاد إن نبهنا إلى أن دول الإسلام العظمى في التاريخ كالدولة العباسية نعتت بدوام العز والسعد إلى يوم القيامة. وكانت الدولة العثمانية نعتت بالدولة "العَلِيَّة الأبدية المدة". فهنا إشارة إلى هذا البُعد، زيادة على إيماءات أخرى مثل أن الأمل في النهضة لم ينفد، وأن الدين خالد، وأن طبع الفداء لن ينقطع، ولعل النهوض يبدأ من هذه البلاد. "وجناح قلعة" موضع شهد هذه المعركة الشهيرة في التاريخ، سطر فيها الجيش العثماني ملاحم فذة ورد جيش الحلفاء على أعقابهم في الحرب العالمية الأولى، وذلك كسان في ١٨ مارس ١٩١٥. (المترجم)

ورجل الفكر أنموذج للشعور بالمسؤولية إزاء مجتمعه. يضحى بكل ما وهبه الله، ومن غير تلكؤ وتذبذب، في سبيل أهدافه وأول أهدافه كسب رضا الله... ولا يخاف ولا يخشى من شيء، ولا يهب قلبه إلا لله وحده... ولا يبالي برغب إلى السعادة، ولا بقلق من شقاء. لأنه بطل أسطوري للمعنى إلى درجة لا يأبه فيها بالاحتراق في نار جهنم، ما دام فكره ووطنه سامقاً وعالياً.

ورجل الفكر الراقى يستشعر التوقير للقيم التي وهب لها قلبه استشعاراً عميقاً كعمق المراقبة، ويمارسه بنشوة كنشوة العبادة، ويعيش دائماً رجل عشق وحماس لا يفتران. ويعلم كيف يضحى في سبيل فكره بالنفس والحبيب، والمال والجاه، والأهل والعيال، واليوم والغد، في آن كلمح البصر ومن غير توان، ويرجح دائماً وجهة فكره السامي مع مراعاة الحق والحقيقة بتدقيق يشطر الشعرة أربعين شطراً. وهو حاكم على نفسه، ومحكوم بيد الحقيقة، وغير مبالٍ بالمقام والمنصب، وخائض في كفاح مستمر في أعماق قلبه بلطافة احتسابه الشهرة والطمع وحب النفس والرغب إلى الراحة، وأمثال هذه الأمور، سماً قاتلاً. ولذلك يفوز أبداً في ميادين الظفر، ويجعل مواقع الهزيمة ساحات تدريب فني للفوز والنجاح.

وهو في سلوكه طريق السامقين، مشدود شداً وثيقاً بحسابات الحق... حتى إذا صدمته عواصف الرغبات استقوى واشتد فيه حب الحق، وإذا توجه إليه طوفان الحقد والبغض، أطفح في روحه فوارات الحب والشفقة... وكم نعمة يهفو إليها عامة البشر، يتجاوز هو عنها ماضياً في سبيله، وكم نقمة يتصدى لها بصدوره. وإذ تخيله بأفاقه الحقيقية التي تذهل العقول، يطوف أمام عيوننا أطراف العزائم النبوية، وتنهمر على أحاسيسنا صور بشر فوق البشر من وكجات الأبواب التي تُفرّجها التدايعيات، ويفعم بيت خيالنا بالبطولات التاريخية... يطفح ويفيض، فيرتعش بوفاء وإخلاص عقبة بن نافع

في صحارى أفريقيا، ويذهل لشجاعة وحماس طارق بن زياد الذي يخلف وراءه "برج هرقل"^(١) أثراً بعد عين، ويتطلع دهشاً إلى عزم وإقدام محمد الفاتح، ويُقبَل السيف الذي أُلِيَ الاستسلام في "بلونة"، ويسلم -تعظيماً- على أسود "جناق قلعة" الذين استقبلوا انفلاق المدافع والقنابل فوق رؤوسهم بالضحك والسرور.

ولسنا بحاجة اليوم إلى هذا وذاك، بل إلى أمثال هؤلاء من رجال الأفق الرحيب المثاليين بالشخصية السامقة. وسيتحقق في السنوات القابلة قيام شعبنا من جديد وكرة أخرى، على يد هؤلاء من أهل الروح والمعنى، ورجال الفكر السامق. هؤلاء الشجعان الذين خميرة وجودهم هو الإيمان والعشق والحكمة والبصيرة، لم ينحنوا أبداً أمام زخم الهجمات الداخلية والخارجية على مر القرون التسعة أو العشرة الأخيرة، ولم يتزعزعا. ربما انكمشوا شيئاً قليلاً أو ضاقوا، لكنهم اكتسبوا صلابة البنية، فتماسك قوامهم إلى درجة كافية لتصفية الحساب مع المستقبل. وهم اليوم جاهزون لاستلام "النوبة" بقوة الروح الخارقة للعادة، يتطلعون إلى العصر بأبصارهم في ترقب نشط.

نعم، في القرون الأخيرة، شهد العشق والحكمة والبصيرة وحس المسؤولية ضموراً وانكماشاً، وجاءت المسائل اليومية الطفيفة لتتعد في مكان فكر "الملة". فلا يمكن الادعاء -بداهة- بحصول "تجديد" في هذه المرحلة. وما طرح في الساحة باسم "التجديد" في هذه المرحلة لا يتجاوز التقليد الوضيع والتكلم بلسان الغير. هذه الهيكلية الشكلية التي يمكن أن نصفها بتلبس الفكر "الملي" بلبوس الفسق وتخريب روح "الملة"، قد أضرت أكثر مما نفعت. وبينما كان الشعب ينزف دماً بسبب التخريب والهدم الواقع في بدن المجتمع، لم يُعرف الداء الحقيقي، ولم تُكتشف طرق المداواة، وأصابت

(١) المقصود جبل طارق. (المترجم)

المعالجات الخاطئة جموع الناس بالشلل. ولا زالت آثار نوبات الحمى لمرض القرون الأخيرة تشعرنا بدوام العلة، لاستمرار فورانه الدافع "عن المركز".

لذلك، سنقع في خطأ بعد خطأ ونحن نبحت عن دواء، وسنصاب بنوبات بُحران أشد، وسنعجز عن الانفلات من دائرة الأزمات الفاسدة، اليوم أيضاً كما في أمسنا، ما لم نتبصر في الأسباب الحقيقية للمعضلات، ولم نعالج عللنا الفردية والعائلية والاجتماعية بحذاقة الحكيم، ولم نخرج من مستنقع "اللوثيات" الذي نضطرب فيه منذ عصور.

ولئن أصرّ الذين يمسكون بالعنان على عنادهم الدائم عدة قرون، فنحن نؤمن يقيناً بأن أجيال الفكر المثالية المتوجهين نحو المستقبل بحسبهم وفكرهم وعملهم الحركي، المحيين لرسالتهم ووطنهم وإنسانهم بدرجة العشق، المتوترين كوتر القوس في انشدادهم إلى الخدمة والشعور بالمسؤولية، ستحتاز العقبات كلها وتنشئ تكوينات جديدة. فلا بد أن يسري العشق الذي في جنباتهم، وحبهم للخدمة إلى شرائح مجتمعهم كلها، فتشب براعم أينما سرى. وإذ يلغي هذا الفكر الواقع المادي والجسماني القائم، ويطرحة جانباً، لا بد أن ينقش كرة أخرى ديباج روحه الذاتي، حسب رؤيته الخاصة إلى العالم، وبرنامج حركته الذاتي.

"المعينية" إلى حد ما

إن تماسك أجيال الغد وقوامها وسعادتها، حاصل من حواصل الأرواح والأنفاس المضحية هذا اليوم. وإن انتظار مستقبل متكامل ومنظم من ركام البشر الضجر الشريد السادر في الراحة والرخاوة، ليس إلا محض وهم وسلوان كاذب. المستقبل يتطور إلى براعم في رحم اليوم، ويربو برضاع اليوم، ليتماسك قوامه. وكما يحمل وجودنا اليوم سمات أمسنا، بخيرها وشرها، كذلك يكون الغد نسخة من اليوم بصورتها المطورة والموسعة والمتحولة من الفردية إلى الاجتماعية. وإن حياتنا "الملّية" بألوانها وأحوالها الخاصة، تشبه نهرًا يسيل متسرّبًا من جبال الماضي ووديانه، وسهوله وأريافه، فينحدر إلى المستقبل بتلوناته الخاصة. وإذ ينحدر نحو قابل الأيام، يحمل معه خصوصيات الأرجاء التي يمر منها. وسنرى إن أمعنا النظر في الشلال الذي ننحدر نحن أيضاً معه، آثار أقدام أجدادنا، وخلجات أرواحهم، وتناجات أدمغتهم وعضلاتهم، وأفكارهم، وخفقات قلوبهم. فلا جرم أنهم منابع حياتنا، وأنا بأنفسنا وبحركات تاريخنا، عصاره وجود الأجيال القادمة.

فإذا فهمنا هذه النكتة اللطيفة في التوارث، نعلم أن روح الأمة تحافظ على جدتها وشبابها وتبقى إلى "أبد المدة"، مهما هرمت أحوال الدنيا، وتبدل الزمان كلاً، وتغيرت العصور، وراح من جاء، وأعقب الآتون بعدهم من راحوا. ففي خط التبدل والتحول هذا، إذا انقلب أبو بكر إلى عمر بن عبد العزيز، وتحول عمر إلى الفاتح، وصار عليّ روحاً للغازي "بطل"، وتمثل أبطال بدر كرة أخرى بعمق محتوهم ومعناهم في "ملاز كرد" و"قوصوة"

و"جناق قلعة"^(١)، فإن ذلك يعني انشداد كل شيء بالأبد. وعندني أن هذا هو سحر التجدد والحفاظ على الشباب. والواجب أن نجعل زوالنا غداً فرادى، أساساً وعصارة لوجودنا وبقائنا "ملة"، فنستقبل في سعادة وفرح أشد أنواع الموت رعباً، حتى نضمن الأبد بأبعاده الدنيوية والأخروية. إن الأبطال الذين يجهزون غدنا، والذين تقصر عنهم تصورات المدن الفاضلة، هم أولئك الذين يستفيدون على أتم وجه من كل فصول العمر، من يوم إدراك الألوان الوردية للدنيا إلى عوالم الشباب المتوثب المزدهر ألوانا، ومن مرحلة النضوج المتميز بالصلابة والقوة والإرادة، إلى زمن الشيخوخة المكين والمستقر، فتراهم يوازنون كل خطوة من خطواتهم، ويميون عمراً مليء الأيام، ويستعدون للموت في كل منعطف من منعطفات الحياة، ويموتون إذ يموتون ملتفتين بوجوههم قِبَل الأبعاد وغرقى في العشق. هم أولئك الأبطال المجهولون وصوص الروح المتحركة على قدمين، يسبقون إلى الأمام أبداً، ويظهرون في الخلف دائماً، يعيشون حياة من يترك ذكرى لطيفة لأجيال، ولكنهم يَجِدُّون في تحقيق لقاء الموت بملاحظة أن يقال: مات مسكين ههنا!

فإن عجزنا في زماننا هذا عن إعداد أبطال كهؤلاء، أو عن منحهم فرصة تمثيل الحركيات المذكورة آنفاً، أو عن حياكة فصول العمر المختلفة بمغزل حركيات هذا الروح والمعنى، فلن نستطيع أن نَعَدَ بشيء باسم المستقبل، ولا أن نندم وجودنا في الأيام المقبلة. فإذا اقتنعنا بأن المرحلة التي نحن فيها أساساً للجزء الذهبي من الزمن المقبل، فينبغي أن نستفيد أقصى استفادة من هذا الأساس بالبصيرة والشعور والإدراك والصبر، وتجهيزه للمستقبل بالحفاظ

(١) الغازي في التركية بمعنى الجاهد و"بطال غازي" من المجاهدين في جيش الدولة العثمانية، أبلى بلاءً حسناً في الحروب وأصبح بطلاً أسطوريا يضرب به المثل في الشجاعة والإقدام. وملازكرد، وقوصوه، وجناق قلعة وقائع مشهورة. (المترجم)

على الروح والجوهر، مع إشباع جوانبه المفتوحة للتفسير بجزائن تجعله قادراً على احتضان المستقبل. ولا محيص من تلك المخذورات المذكورة آنفاً إذا ما أهملنا المتطلبات اللازمة. فلا يصح في روح الدين وقواعد "الشريعة الفطرية"^(١) إهمال الأسباب، ثم توقع حصول النتائج المتعلقة بالأسباب، أعني من جهة العلية بداهة. وما نشهده دائماً في صدر الوجود من "مُعَيَّنَةٍ"^(٢) (Determination) بقدر معلوم وشروط متعلقة بطروفها، جارية في أحداث التاريخ أيضاً. إن البشر والحوادث السالفة في الماضي والتي صارت تاريخاً، هي اليوم شبيهة بالحيوانات المنوية المودعة في حضائن اللقاح، أو بالبويض في بيوت التفقيس أو تحت عقدة الحياة... وتُعدُّ مصدراً لإضفاء الصورة على الحاضر. وإن الأسباب المثورة اليوم -من جهة العلية- كالبدور على سفوح التاريخ، هي عوامل تُعيّن نتائج الغد المتسمة ببعْد الحكمة وصبغة العدالة وسلوكية الاستقرار ومعادلة الاستقامة.

أو لم يتكرر هذا دائماً وحتى الآن؟ أليست الأيام السوداء التي شهدناها في مرحلة معينة، وليدة "لوثيات" المرحلة التي سبقتها؟ ألم يفر تنور الطوفان في الأرض التي يدوس عليها المخبولون المعاندون للنبي نوح عليه السلام؟ أليست الأعاصير الثائرة في "الأحقاف" تدميراً من أجل تطهير الأرض التي دنستها "عاد"؟ وهل أضحية "سدوم" و"عاموراء"^(٣) إلا فدية الأرض للسماء؟ ألم تنسحق "الهند" تحت الأحذية الانكليزية سنين في الماضي القريب بسبب اعتبار قسم من أهل الهند لآخرين منهم "منبوذين"؟ ألم يكن التفسير الخاطئ

(١) المقصود من الشريعة الفطرية مجموع السنن الإلهية التي فطر الكائنات عليها وأجراها فيها. فهي بهذا المعنى شريعة فطرية وقوانين إلهية واجبة الطاعة والمراعاة. (المترجم)

(٢) المعينة: الخصلة التي تحقق ذاتية الشيء (عند هيغل)، وتختلف "وضعية" الشيء عن المعينة بأنها تحدد العلاقة بين الشيء مع الأشياء الأخرى. وفي المعينة تكون عائدة الخصال والصفات إلى الشيء بذاته وعلاقتها فيما بينها ذاتياً وفي نفس الأمر. (المترجم).

(٣) "سدوم وعاموراء هما -حسب المعلومات التاريخية- مدينتان كنعانيتان في جنوبي البحر الميت أبادهما الله لشيوع الفساد حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد. ولا زالت بعض آثارهما شاخصة. (المترجم)

للكون والتفرق والجهل سبباً لنهش الأقسام الآسيوية بعضها لبعض في العهود القديمة على يد جنكيز خان وهولاكو وأمثالهما؟ واكتوائهم في البأساء والضراء في العهود الجديدة على يد الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية؟ وما لنا نحوم في الأجواء البعيدة... انظروا إلى الذين غدروا بدولة عالية، كانت عنصر موازنة في المنطقة المباركة التي امتدت عليها حتى أوائل القرن العشرين من أفريقيا إلى البلقان ومنها إلى أجزاء من آسيا، وأمة مجيدة، ألم يصبهم وبال ما صنعوا أضعافاً مضاعفة؟ وماذا عمل صراخ "قرطاجنة" الآيس، ثم عويل النصرى الأوائل المفرغ، وأين المظلومين جميعاً في الإمبراطورية الرومانية الشاهقة؟ ألم تسقط قاعاً صفصفاً؟ وانتزاع لنين وستالين وهنتر وموسوليني من بدن الإنسانية كورم حبيث، بتماثيلهم وعواطفهم وأفكارهم، أليس ذكركم باللعنات اليوم بسبب طغيانهم الذي فاق طغيان أعتى جبابرة التاريخ؟

إن المسلمين الأوائل، المظلومين والمغبونين، قد أغرقوا أعداءهم في بحر تخاصمهم فيما بينهم، ونشروا الألوية في أرجاء الأرض بعدالتهم. فكانت "بدر" و "فتح مكة" عنوان حاكمية الحق والعدل، وكانت "أحد" عنوان ظفر المظلوم والمغبون. وظلت الانتصارات تترى ما دام السيف في كنف القلب... وحتى المواقع الظاهرة بسيماء الهزيمة تحولت في تلك المرحلة المباركة إلى ظفر وفوز، وازدانت "أقواس نصر" على الطرق الموفية إلى المستقبل. ونقيض ذلك، إذا انتقل السيف إلى كف القوة، ووُثقت ألسن القلب بالأغلال. ألم تخلف - إذ ذاك - كل حاكمية مادية، متلبسة بلبوس النجاح، فشلاً وهزيمة في الأرواح؟ فحولت وتيرة الظفر والفوز إلى ميادين تصول فيها الحسرة والهجران؟

فهما كان الاسم والعنوان، فالشر يلد شراً، والظلم ينقلب إلى مظالم تدور حول حلقة مفرغة ودائرة فاسدة. والذين يزرعون الفتنة، أمس أو

اليوم، يحددون الشر، والذين يزرعون فسائل الخير يجنون ثمار الخير والبركة. وفي الواقع، ربما تعرضت نتائج مساعي الخير والشر إلى إهمال مؤقت، لكنها ظهرت وبرزت حينما أُنعت، فأذاقت الظالمين الآلام في حسرتهم، وصارت وسيلة لإنقاذ المظلومين وإسعادهم. وقد تنقضي سنوات أو عصور بين السبب والنتيجة. ولكن حين حلول "الوقت المرهون"، والإحساس بالأثر، تغدو النتيجة عين اللجنة للأبرياء، وعين الجحيم للعصاة والظالمين.

ويمكن أن نفسر ذلك كله بالمُعَيَّنة -أو بالتناسب بين السبب والنتيجة- التي في روح التاريخ. بمعنى من المعاني، أو الأصح والأصوب: أن نشرحه وفاقاً لروح العدالة في الشريعة الفطرية، أو نتقبله سبباً في تكرر التاريخ. ومع أن الأسباب القابعة خلف حوادث التاريخ كثيرة لا تحصى، لكن التقدير المطلق جعل الأسباب ستاراً لمشيئته وقضائه، وأحاط دنيانا بها. فهذا لطف إلهي ذو حكمة -كما هو في الإرادة- وهبه الله تعالى للإنسان. وهو وسيلة لنا وزينة لازمة نترين به لتنفيذ التكاليف التي علينا.

من هذه الوجهة: قد يكون ديب تحرك صغير بدايةً لكيان كبير بعد سنوات وسنوات، وقد تحصل نتائج وخيمة تزلزل العصور من قناعة خاطئة أو تصرف سقيم.

ولذلك، يحق لنا أن نترقب نسيجاً مباركاً بألوان الغد السعيد يحظى باهتمام الإنسانية جمعاء، من هذه النقوش الصغيرة التي تغزلها بمغازل أفكار الخير أجيالاً محظوظةً في الزمن الحاضر.

فلسفة الحياة عندنا...

يعيش قسم من البشر من غير ممارسة للفكر. وقسم آخر منهم يفكر، ولكن لا يعكس فكره على واقع الحياة قط. أما ما ينبغي فهو أن يعيش الإنسان وهو يفكر، وأن يبتكر أنماطاً فكرية جديدة إذ يعيش، فيفتح على آفاق مُركّبات فكرية مختلفة. والذين يعيشون من غير فكر هم دُمى تُمثل فلسفة حياة للآخرين. هؤلاء يلهثون للتغير من شكل إلى شكل، ولا يملّون تبديل قوالبهم، ويضطربون ما عاشوا في الانحراف بين الشعور والفكر، والانزلاق في الشخصية، والتمسّح بين الصورة والسيرة. وقد يتقاسمون حيناً حظوظاً حصل عليها المجتمع، ويستفيدون حيناً من توافق مجرى الأمور -وكأنها تترتب حسب تفكيرهم وحسهم وإرادتهم- لكنهم لن يربحوا أرواحهم البتة بالمحاسن والفضائل الإرادية، ولن يشبّوا بها إلى العلى، ولن يوجهوها إلى اللانهاية. هؤلاء يشبهون برك الماء العقيمة والخرومة من البركة والخامدة والمعرضة إلى الأسون. فلا يبعد أن يتحولوا بمرور الزمان إلى مجمع للفيروسات ومأوى للمكروبات، بله أن يفيدوا بشيء باسم الحيوية.

وهم ضحالة فكرياً وسطحيون رأياً إلى درجة كأنهم أطفال يقلدون كل ما يرون ويسمعون، وينجرون وراء الطغام هنا وهناك، ولا يجدون ساحة للإحساس بأنفسهم والإنصات إلى دواخلهم وتمحيص قيمهم الذاتية... بل لا يشعرون البتة بوجود قيم تخصهم بأنفسهم. فيحيون كعبيد لأحاسيسهم الجسمانية والبدنية عبودية لا اعتناق منها. ويسخّرون كل شيء حصلوا عليه، ويحصلون، لخدمة الجسمانية في إطارها الضيق، ويغيّرون أعظم الألفاظ التي وهبها الله للإنسان، كالقلب والإرادة والحس والشعور، إلى وسائل رخيصة للمذاقم البدنية، ويقضون أعمارهم في بوهيمية. المقام

والمُنصب والشهرة والمنفعة والحرص على الحياة، من أهم العوامل التي تُعيّن حركة هؤلاء وفعاليتهم. وسواء أعرَفوا أم لم يعرفوا، فهم يقعون كل يوم في واحد أو أكثر من هذه الفخاخ القاتلة، ويذبحون أرواحهم مرات بسكين أرذل أنواع الموت.

وليس لأمثال هؤلاء ماضٍ ولا مستقبل، ما داموا يرددون قول عمر الخيام: " لا تَشغل البال بماضي الزمان/ولا بآتي العيش قبل الأوان/واغنم من الحاضر لذاته/فليس في طبع الليالي الأمان"، ويتبعون غرائزهم الحيوانية، ويرون الدنيا عشبا ومرعى، ويحيون راغمين أنف مشاعرهم وملكاتهم الإنسانية. فلا ينفكون من التقلب المضطرب في المستقبل و"اللوثيات".

أما الذين يعيشون حياتهم مفكرين، ويجعلون -حسب درجاتهم- كل يوم، أو كل ساعة، من حياتهم ميناءً أو مرسى أو طريقاً للأفكار المبتكرة، فهؤلاء يَمْضون أعمارهم في حوار العيش ما فوق الزمان، ومفاجآتة وسحره، فيتجرعون الماضي كماء نبع مبارك، ويتنفسونه نفحة رائحة في رئاتهم، ويطلبونه ككتاب، ويسيروا إلى المستقبل بهذه العدة... ويحضنون الزمن الآتي بجرارة قلوبهم، ويلونونه بأمالهم، ويصورونه بعزمهم وإرادتهم... ويحتسبون الزمن الحاضر مركزاً استراتيجياً لتنفيذ أفكارهم المثالية، ومصنعاً لإنتاج التقنيات الضرورية في هذا السبيل، وجسراً للعبور من النظري إلى العملي... ويحدّون دوماً كي يكونوا فوق الزمان وفوق المكان.

فهم من وجهة يطالعون الوجود والزمان في هذا المستوى، ومن وجهة أخرى ينسلخون من ضيق الحياة الجسمانية وينفسحون في رحاب عالم الفكر ويسيحون -وهم في هذه الحياة الفانية الموقوتة- على سفوح ممتدة إلى اللانهاية في عالم آخر ذي بُعدٍ أبدي... يسبحون ويدفعون عربون اللانهاية بأفكارهم وأحاسيسهم وأمالهم، ويتعاشون مع مشاعر اللانهاية، ويتطلعون إلى ثراء الكينونة الإنسانية في أغوار الرحاب اللدنية التي حفروها في مغاوص

قلوبهم، ويجدون في اصطلياد أنواع الفجاعات بالشباك التي نشرها في قلوبهم مما لا تبصره الأعين ولا تستمع إليه الأذان ولا يتصوره خيال الإنسان. فترشدهم علومهم ومعارفهم ومكتسباتهم العالية فوق المستويات، إلى ما هو أعلى، بل أعلى المعالي، ويؤمل كل منهم أن يكون عُقاباً سماوياً. فهؤلاء الذين يحميون حياة كهذه، ويجعلون أعمارهم مزارع لأشجار الفكر، سموهم إن شئتم أهل الحكمة، أو أبطال الفلسفة ذوي الهدى، وعرفوهم كما تشاءون، لكن اعلموا بأن رجال النور الذين يمحكون التاريخ برقة وظرافة نسيج الحرير، قد ظهروا دائماً من بين هذه الأرواح العالية، على مر الزمان الممتد من العوالم القديمة إلى عصرنا الحاضر. وحتى أنظمة البراهمية والبوذية والكونفوشية والطاوية والزرادشتية، التي تشبه النظم الفلسفية وليس الأديان، هي هدايا أبطال الروح إلى الإنسانية.

فإن ألحان صروح الفكر هؤلاء، تسمع دوماً في تحرير تيار الفكر المديد إلى الماضي. إن الرؤى المختلفة إلى الحياة وأتماط الحياة المتنوعة وأحواض الحضارات العلمية والثراء الثقافي في الجهات الأربع من العالم القديم والجديد، كانت دائماً من نتاج بياذر الفكر هؤلاء الأبطال. فمع كل هذا التبديل والتحريف والإبعاد عن الأصل الذي أصابه، يمكننا أن نقول باطمئنان تام إن القسم الأعظم من البشر في الأرض لا زالوا يتبعون آثار ذلك المحتوى والمعنى والروح القديم - مهما تعسر التأليف بين الحياة المعاصرة وبين هذا القول - وأظن أن الضرورة قائمة لكي نتقبل استمرارية الأخطاء - كحالة طبيعية - بحسن الظن وحسن التأويل، وذلك إلى أن يجد "الممثلون" الأبطال الأمور التي لم تتعرض إلى التحريف والتبديل من تلك المرجعيات.

وبناءً على ذلك، ما يجب علينا اليوم - ونحن نستعد للتجديد مرتبطين بأوثق الروابط بجذور معانينا الذاتية - هو أن نُجهِّز الأبطال الذين يحمون تلقيح أنفسهم بأمصال الوقاية المستخرجة من ذات أرواحهم... الأبطال

المُنشِدون القادرون اليوم على أداء الكلمات لأناشيد ماضيها من غير تعثر بشيء أو بعائق، وعلى استشعار توقد الحماس في قلوبنا المتجددة كل مرة بتلون آخر.

والواقع أننا سوف يطالنا خراب عظيم على أيدي صناعِ أجانِبِ أعرارٍ، لحين إعدادنا وتجهيزنا لهؤلاء الأبطال. وإبان ذلك، ستشتغل الإنسانية جمعاء أيضاً بصب أساطيرها القديمة لملء فراغ القيم الأزلية الكونية التي تبحث عنها بوجودها فلا تعثر عليها بعقلها... فتتقلب من فقدان الطمأنينة إلى دوار الأزمة، ومن دوار الأزمة إلى تخريبات جديدة.

لقد غابت عن واقعنا منذ قرون منظومة فكرية ذاتية، وفلسفة حياة ذاتية، تعتمد على الحركيات الإسلامية التي تشكل جذور المعنى لثقافتنا "المليّة"، فتشتتنا شذر مذر، نحن وعالم كبير مرتبط بنا. ومن الضروري أن نميز بين النسق الفلسفي والفكري لمرجمي نظام الفلسفة اليونانية المتجمعة في الحوض الفكري لأرسطو، من أمثال الكندي والفارابي وابن رشد، وإلى حد معين ابن سينا، وبين نسقنا الفكري وفلسفتنا في الحياة، الموصولة الجذور بالسמות، القديمة كالأزل، لكن الجديدة، بل الأكثر حدة من الجدة ذاتها، إلى درجة القدرة على استيعاب كل العصور، والمنضوذة من الحكمة والحكم. فموضوع نسقنا الفكري قائم على تفسير ذي تنزل من اللاهوت والجيروت والملكوت والناسوت، ومعلوم المنشأ ومنور، ومعتمد على حقيقة الخلق. فإذا استطعنا أن نتفهم هذا التفسير والتأويل بنكاته الذاتية، نكون قادرين على إبراز نظامنا الفكري. وهذا يعني في الوقت نفسه افتتاح طرق واسعة تؤدي إلى تجديد جاد على مستوى العالم كله.

لقد بذلت الجهود في سبيل نظام فكري كهذا مرات كثيرة منذ عهد محمد الفاتح - جعل الله مثواه الجنة - لكنها لم تبلغ الغايات المرجوة منها. هذه الملاحظة يمكن أن تتعرض إلى المناقشة من بعض جوانبها، لكن الحال

هو هذا عموماً. لقد جَدَّ الكثيرون في أن يستجيبوا لمثل هذا البحث والترقب في الوجدان الاجتماعي العام، كأمثال خوجه زاده والملا زيرك، أو مصطفى رشيد باشا ومهندسي "المشروطة" (الحكم الدستوري)، ومنهم إلى كثيرين من عمال الفكر في المرحلة الحديثة، الخالصة نياتهم وغير الخالصة. لكن بعضهم تعثر وتوقف عند "تهافت" ابن رشد والإمام الغزالي، وبعضهم غرق في دوامات الثورة الفرنسية واوغوست كومت، وبعضهم تلهى وانشغل بهذيان دركهايم... ولم تكلَّ الحركة أبداً، لكن لم يحسبوا حساب العصر حيناً، أو تراكضوا وراء الأحلام وحدها، أو اتخذت الأهواء والرغبات آلهة من دون الله فتبدد في الحيرة والضياغ ميراث ألف سنة من القيم "المليّة". ويا ليتنا استطعنا الآن أن نتجاوز هذه السليبيات... هيهات هيهات! فلسنا ندعي أننا ننظر بعين الرضا إلى هذا الجانب من واقعنا. فكم أتمنى أن تتجاوز السليبيات كلها، وأن تطور نظاماً فكرياً وفلسفة "مليّة" تتغذى من مصادرنا الذاتية!

وأشير هنا إلى أن آراءنا ستتناقض مع بعضها باستمرار وسينهش بعضنا بعضاً في فخ "التعارض والتساقط"، بسبب الاختلاف في زوايا الشعور والإحساس بالكائنات وتفسيرها، ما لم نُقم ما نبنيه على قاعدة فكرية راسخة كهذه، وما لم نمتلك نظاماً فلسفياً كهذا. فيجب تحقيق عائدية مستقبلنا إلينا، مثلما حاضرننا، بهذه الأصول، وبهذا النظام، وبفيض أسلوب تتقاسمه الأجيال جميعاً. فإذا لم تتحقق الوحدة في مشاعرنا وفكرنا ونمط حياتنا، فستظل الوحدة "المليّة" والتضامن "الملي" أمنية حماسية. فالمنطلق "الملي" والفكر "الملي"، والمحكمة "المليّة"، وواردات الروح، أمور بالغة الأهمية في أي نظام من الأنظمة. فإن أي نظام فكري يستطيع أن يحقق وحدة الحس، ووحدة المنطق، ووحدة المحاكمة، وسهولة التعايش معاً للشعب من الشعوب، بالمقياس والقدر الذي يستمد من عقل الشعب ووجدانه وعالم أحاسيسه... وعلى الضد إذا تصادمت المشاعر والأفكار والتفاسير

والأساليب، وتناقضت المحاكمات، فإن تراحم الحركة في هذه الأحوال، لا يعني كثرة البركة البتة. ودع عنك البركة، فكثيراً ما يؤول المصير إلى الاضمحلال في هذه الأوضاع. إن كل حملة وجهه في المجتمع الذي يعاني من فوضى في الفهم والتفسير يشبه أمواج البحر المرتطمة ببعضها، إذ تتكاسر دوماً وتنصبّ إلى حوض عطالتها وتلف وتدور في فراغ الدور والتسلسل الفاسد. ولعلنا نجد بالتمحيص حكمةً في تكاسر أمواج البحر بالارتطام مع بعضها، لكن أمثال هذه المصادمات في المجتمع لا يخلف إلا التعفن والانحلال وإهدار النفس. ففي مثل هذا المجتمع، يكون كل فرد ذنباً يفترس الآخر، وكل فكر برنامجاً للموت. ومع أن السماء تمطر رحمة على مثل هذا العالم، لكن الهيئة الاجتماعية تبقى تحت تهديد عُنْتها. وكذلك تبقى القيم التاريخية فيها معرضة إلى الانحراق والتمزق، وتبقى المقدسات مهددة بالتبدد. ولا محل للوفاء عند الكهول في الركام البشري لهذا المجتمع، ولا مكان للفتوة عند شبانهم. فالقوى الفتية والحركية المأمول منها أن تسمو بالمستقبل كسارية العلم على هاماتها، هي التي تحتقر الراية وتشتم الماضي من جهة، وتحسب المستقبل ساحة جنون لإجراء ذائلها من جهة أخرى... أما الكهول والمتفنون الذين سلموا أنفسهم للامبالاة المفزعة، فيتصرفون كمشجعين لفكر "اللوثيات"... فتراهم يثيرون البوهيمية في الأرواح ويصبون ماء النار على البصائر، بأقوالهم وكتاباتهم ورسومهم وبرامجهم في وسائل الإعلام.

وفي مثل هذه المرحلة، لا تحفز ماوي العلم عشق العلم وفكر العلم في الأرواح... ويلعب أصحاب أيديولوجيات معينة بالذين يمثلون القوة وكأهم دمي، يفترس بعضهم بعضاً... ويضطر المنطق والمحاكمة والإلهام على المسير في الممرات الضيقة للرموز والإشارات... وبدهي أن الحياة بذاتها تكون تعديماً للحياة في مجتمع كهذا، عامرٍ بالنقائص والمخالفات، مقدّمٍ للرغبات والأهواء على الفكر.

والحال أن نظام الفكر وفلسفة الحياة عندنا رحيبية، تتناول عوالم الوجود، وما عدا الوجود، وما قبل الوجود، فتقيّم الأشياء وما عدا الأشياء في كلية، وتعيّن معالم نمط الحياة في تكامل وإحاطة. فهو نظام يحقق العدالة الكونية المرتقبة في الأرض كلها بتحويل السلوك الأخلاقي إلى حال السهولة في المجتمع وأجزائه الأفراد، ويستجيب للمتطلبات الإنسانية، فيصل المجتمع في ظل ذلك إلى القدرة على تجديد نفسه ذاتيا بالتربية على الروح والأخلاق والفضيلة والتفكير. ثم يكون فكرنا الحضاري وغنانا الثقافي كسلعة رائجة في كل أقطار الأرض، فنغدو اليد المعطاء التي تقدم في ارتياح هبات فكرنا الإنساني وفلسفتنا الأخلاقية وفهمنا للفضيلة ومتلقياتنا للعدالة. وبفضل هذا الوضع والمستوى أيضاً، تنبجس الحركات الإدارية والأصول الاجتماعية والاقتصادية في الدولة، كما في مصادرها الأخرى، من الروح الذاتية للأمة، فتتحرر من أنواع "المقيّدات" كلها. إن "التقيّدات" الضمنية المضروبة على رقابنا حتى الآن كالنير، بسبب نقاط ضعف فينا أو مديونيات علينا، ومهما كانت خفية غير جلية، عرّض نظامنا الإداري، وأنظمتنا الاقتصادية والسياسية والعدلية إلى العطل والفشل، وأصاها بالشلل. إن أبناء أرومتنا الذهبية الذين جعلوا الأناضول أرقى بلاد الأرض عمرانا قد نسجوا أو أنشأوا أنظمتهم الإدارية والسياسية وتشكيلاتهم العدلية، بمسئلات الروح الذاتية. فلم يسمحوا لفكر أو لمؤسسة أو لتلقّ أن يجتاز من أبواب هذه المؤسسات التي تُعدّ "بيوت الحرم" للأمة، ما لم يُقيّم بالمقوّمات والمعايير الذاتية. ودع عنك أن يأذنوا بذلك، فهم لم يياسوا حتى حين انسحابهم جانباً وقد أُنحنتهم الجراح مغلوبين إلى مدة، بعد حرب ضروس مع العالم كله، ولكن مع بريق الأمل، مهزومين ولكن مع الإيمان. فلم يتوانوا عن إلقاء أيديهم إلى التهلكة لحماية أصل حياتهم الذاتية، وتراكموا حول الشعور التاريخي، وعضوا عليه بالنواجذ -حسب إفادة الحديث النبوي- على الحركات التي يدينون بوجودهم لها... فكانت نواصيهم عالية، وتلقّياهم

عن الدنيا والعقبى موزونة، وأنفاسهم حرى، ماضين نحو "إحياء" جديد...
وقد نستطيع أن نكون مثلهم، وقد نتقدم عليهم، ونحن نترقب فجراً يتبع
فجراً في هذا الزمن، إذا قيّمنا الدنيا التي نعيش فيها تقييماً صحيحاً من وجهة
أفق الحكمة الذاتية، ففسرنا الأشياء والحوادث تفسيراً صحيحاً، وشخصنا
المتطلبات الأساسية لبناء إنساننا الداخلي، وانشددنا بفكرة التواجد والحضور
إلى الأبد. وما الذي يعيق الأجيال البصيرة عن تقدم الصفوف، ما دامت
قادرة على تقييم الماضي والحاضر والمستقبل على صعيد واحد، وحامية
لأعراف المجتمع وتقاليدته وحركياته تاريخه، وماهرة في تفسير تكرر التاريخ
باتجاه تجديد الذات؟

ومن المفيد أن نذكر مرة أخرى بأن مسؤوليتنا الأساسية اليوم هي إشعار
وجدان الأجيال بمؤثرات الكدح المبذول منذ عصور مديدة، والعقائد الإيمانية
المتشربة في النفوس، والثقافات المتأصلة الجذور، على قدر أعماقها في ذاتها،
وذلك بتطوير حس التاريخ في الأمة. فإذا نجحنا في هذا، فلن يخطر على بال
أحد بعد جيلين أو ثلاثة أجيال أن يعيش فوق تراب هذه البلاد، ثم يستعير
لمؤسسات الشعب المتنوعة مصادر أجنبية عن حركيات روحنا ومعانانا.

نعم، نحن نجلب عناصر حياة الغد من ماضينا. فإن استطعنا أن نعجنها في
معاجن ثقافتنا الذاتية بنور الدين وضوء العلم، نكون قد جهزنا خميرة أديتنا.

أجيال الأمل - ١

إن أجيال الأمل باعتبار الزمن الحاضر هم ممثلو العلم والإيمان والأخلاق والفن، وهم مهندسو الروح لمن يأتون بعدنا. وسيشكّل هؤلاء تكوينات جديدة في كل شريحة اجتماعية بتفريغ حرارة الإلهام لقلوبهم المتغذية بالأخرويات إلى الصدور المحتاجة إليها. وإن ضياع حظ كثير من الأجيال في تاريخنا القريب، وهدرهم، بل سقوطهم في الجنون والهذيان، كان بدرجة كبيرة لعدم التقائهم بمثل هذا الجيل الأمل.

لقد عشنا في القرن الأخير، أو القرنين الأخيرين، هزائم متتالية حتى في وسط النجاح! وكثيراً ما خسرنا في سياق النصر! ففي تلك المرحلة التي كنا نفترس بعضها البعض كالذئاب، خلفنا للأجيال الآتية من بعدنا إرث الحقد والبغض والتعصب السياسي. ففي تلك المرحلة لم يخلُ الذين خاضوا في السياسة أو الذين شاركوا فيها من خارجها على السواء، إما من احتساب كل وسيلة لتصدّر فريقهم وكوادهم وسيلةً مشروعة، وإما من توهم أن استلامهم للحكم يغير كثيراً من الأمور أو ينقذ الوطن. ولم يفهم الطرفان يقيناً بأن الوصول إلى المقاصد المرجوة لن يتحقق إلاً بانقلاب يعتمد الدوران في فلك الإيمان والعلم والأخلاق والفكر والفضيلة. ولأنهم لم يدركوا ذلك، ظنوا أن التغيير والانعطاف الكبير المرغوب فيه، هو هذه التغييرات الجوفاء والخواوية من المعنى، والصوروية، والشكلية، وتشبثوا متعلقين بأذيال تغيير المكياج والأصباغ والألوان في عملية الترميم التاريخية الكبيرة. وزد على ذلك، أن بعضهم باع للشيطان فكرة "المليّة" الراقية بأشياء بخسة وكأنه

"فاوست" (١) غرُّ لأنه غريب عن قيمنا "المليّة" الحقيقية. ولم يَمَلِّ هؤلاء من الاضطراب المستمر حسب متطلبات الحال من حيث المنافع والمطامح المتقلبة، من أجل صياغة شكل للملّة على صورة معينة يوماً، وعلى صورة أخرى يوماً آخر... بل الأصح على إظهار "الملّة" بهذه الصور الشاذة العجيبة. فتنفسوا هواء "الطورانية" مرة، وهمموا مرة بمقولات "الشعب، الفلاح، القروي". وقضوا وقتاً مع "الأرستقراطية" مرة أخرى، ثم قالوا: "الديمقراطية"، وغمزوا "للشيوعية"، ... لكنهم لم ينجحوا من الهيم على وجوههم أبداً! فاتخذ مثقفونا خاصة، حلم فرنسا، والإعجاب بانكلترا، والرغبة في ألمانيا، وعشق أمريكا والشوق إليها، حركات لتفسير الحياة وموائى لرسو السفائن المبحرة إلى المستقبل، بنهمهم المختلط والفاقد للمعايير، وحسب تقلب الزمان.

وكان الحال يقتضي أن تُرسخ الفكرة المشتركة بيننا كشعب، وأعني الدين والعاطفة المليّة، على القواعد المتينة والرصينة التي تسمو فوق كل الأحلام والمتخيلات وتتجاوز حقائق الأرواح المنفردة، وتعتمد على الإيمان السليم المتين، والفكر المتأصل، والأخلاق المستقرة، والفضيلة المتمكنة من الأرواح. فمثل هذه الحركة تستطيع أن تعد الأجيال القادمة بالخلاص المأمول... حركة أخلاقية ثابتة التوجه، منفتحة على الامتداد والتغيير في فلك ثرائها الروحي والمعنوي الذاتي، غير متزحزحة عن محور "رضا الله"، موصدة الأبواب تماماً في وجه المنافع والمطامح. وبعكس الحال، سنعجز عن احتضان الروح والمعنى الخاص "بملتنا" ذاتياً، وإحاطته بالحماية، وإيصال الأمانة إلى الأجيال القادمة بأكمل خصال الأمانة، ما دمننا في انتقال على

(١) فاوست: ساحر ألماني قيل إنه باع نفسه للشيطان لقاء الخيرات الأرضية. اتخذ بعض الشعراء بطلاً لمولفاهم، ومنهم غوته في مأساة شهيرة. (الترجم)

الخطوط المنحرفة باستمرار، وفي غيبش الإيمان المختلط الذي لم يبلغ اليقين في قلوبنا ومفاهيم التوجهات المختلفة والتلقيات الحضارية المتنوعة في عقولنا.

لا يغيب عن العارفين بهذه المراحل المضطربة ما فقدناه، وما ضيعناه من قيمنا الذاتية في الماضي القريب. ولم نكفّ إبانها عن التفكير بابتكار أسلوب جديد وفلسفة حياة جديدة، تُبعد عنا المفاهيم المختلفة اختلافاً بيناً، والتلقيات البعيدة عن بعضها بعداً شاسعاً، والأفكار المتناقضة تناقضاً كلياً. لكن هيهات، هيهات. فكم عمر انقضى هدرًا، وما زلنا نسلو بخيال أن نبتكر أشياء جديدة! ويبدو لي عسيراً أن نجد أسلوباً جديداً وفلسفة حياة جديدة بعد اليوم، كما لم نجد في السابق. ذلك، لأننا لا يمكن أن نصل إلى مركب فكري جديد وأسلوب مبتكر في التعبير عن الذات من دون احتضان جذور الروح والمعنى في حياتنا الذاتية. لقد فشلنا في بلوغ نظام فكري جديد وأسلوب مبتكر... بل زد على ذلك، أننا عشنا باستمرار غثياناً واضطراباً تحت تأثير مُناخٍ كثير الأشواك، وكأننا مضطرون إلى الإحساس بأشياء عديدة في وقت واحد! وإبان ذلك، أهدرت عبثاً هنا أو هناك فرصاً سنحت لنا، وطاقات كامنة للقوة والمنفعة.

ومهما بدا علينا وكأننا نعمل شيئاً منذ قرن أو قرنين، فإننا لم نُقم أثراً نظمنا إليه أو نُعبط عليه، يجسد إيماننا المنساب إلينا من أعماق تأريخنا ونمط فكرنا وأخلاقنا وثقافتنا وفننا واقتصادنا. ولئن أُجريت في مراحل معينة مداخلات جراحية تأجيجاً للأحلام أو لأهواء الشباب، لكن لم نسمع إلا جمماً كثيراً من الأمنيات الخادعة عن حاجتنا الحقيقية مثل تفسير العصر وتقييم العلم وتفهم حكمة الوفاق والاتفاق والتغلب على الفقر الذي يقصم ظهرنا منذ زمان طويل. إن نجاتنا من هذا الذهاب الذي يجسنا في حواسنا فيلهينا، ومن الأفكار الهزيلة، سيتحقق على يد أبطال الإدراك والبصيرة والدنيات الفاهمين للعصر والعاشقين للحقيقة بشبّوب اشتياقهم للعلم،

والمحدودة ظهورهم تحت ثقل العضلات الحقيقية الحاضرة والقلق المتصور في المستقبل، والمنعكسة دواخلهم على سلوكهم وتصرفاتهم، والمتنفسين هواء قلوبهم، والمتطلعين دائماً إلى ما خلف الآفاق... أبطال اللدنات الذين يقنون بآلام الأجيال إذ يسعون للنهوض بها إلى درجة معينة، ويجولون مستقبلها الكدر إلى دموع في أرواحهم فينوحون نوح أيوب عليه السلام، ويتقاسمون معها أوجاع يومهم وغدهم، ويشبّون إلى العلى بالشكر باحتساب لذاتها أنعمًا من الحق تعالى. هؤلاء الذين يستلهمون من تاريخنا الحي المزدهر بالألوان، الممتد إلى مئات السنوات، ويستقوون منها، فينفخون روح صيرورة "الملة"، "ملة" حقيقية ومتدفقة بالحوية، ويترزون الشباب بفكر الإيمان والأمل والحركة، ويفتحون تيارات جديدة من حوض فكرنا "الملي" المستكين منذ زمن طويل في الشباك القاتلة للخمود الرهيب. ونحن كأمة سنهرع في هذه التيارات إلى معابدنا التي فقدناها في قلوبنا، فنجهش بدموع الوصال، ونعود إلى مأوينا ومساكننا الدافئة كزوايا الجنة، فنلتقي بانعكاسات الجنان التي ضيعناها منذ أمد بعيد، ونكتشف مجدداً مدارسنا القائمة على قواعد البحث عن الحقيقة وعشق العلم، فننتعرف على الوجود كرة أخرى من خلال منافذه المفتوحة على الكائنات... ونزداد حباً للجميع، وتتعلم اقتسام كل شيء، ونحتضن الجميع على السفوح الزمردية لقلوبنا بأخلاق العيش في اضطراب وقلق متزايد... ونطفح بمشاعر الفن والصناعة إزاء الوجود، ونفكر في المناسبات البشرية بالآثات والخفقات والدموع الحرى، فنعبّر عن أنفسنا.

أجيال الأمل - ٢

إن إحياءنا "بالانبعاث بعد الموت" مرة أخرى، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأطعم عديدة من الأبطال، البالغين أنوار الحقيقة بعد احتيازهم آفاق العلم، والمتحكمين في ضبط الرغبات والمتطلبات البدنية ضمن إطار الضرورات، والسامعين بوجدانهم دوماً أناشيد الماورائية تناديهم إلى الله، المعبرين عنه تعالى ببيان بلا حرف ولا لفظ ولا صوت في هيجانهم ونشيجهم، المتنفسين أنفاس أنسه شهيقاً وزفيراً.

ولأن هؤلاء الأبطال أعدوا أنفسهم منذ البداية عبداً للحقيقة في رقب يأبى الانعتاق، فهم لا يكونون أسارى وخداماً للمطالب المشتتة في المجتمع بتناً، بل يحسون دائماً بنبر العبودية للحق تعالى في أعناقهم، فيقومون ويقعدون بملاحظة اللاهامية باستمرار، ويقضون أعمارهم تحت زخات الإلهام، ويلحون في توسيع وليجة الباب مع كل إلهام جديد من أجل واردات أخرى، وفي جهد من أجل إبلاغ الآحاد إلى الآلاف بخطوة امتيازهم عن الآخرين، فيتجرعون أذواق ولدائد وحظوظ البقاء في الفناء، في كل لحظة، وفي كل مرة.

سير حياة هؤلاء الأبطال يتجدد باستمرار في إطار الإيمان والعرفان والمحبة والعشق والذوق الروحاني، وتحقق أحنحة فكرهم الواسع كالأفاق ساجحة في الرحاب المميّزة بين الفنانين واللاهائي. رأس ما لهم العلم والإيمان، ومنه لهم التقدير المطلق، وطريقهم السبيل الأعظم الذي سلكه كل من جاء وراح من صلحاء عباد الحق تعالى. ماضون إلى الأبد، واثقين بقوة الدين القاهرة، وبعنايات الله تعالى المتجلية فجاءة، ومرشدهم ﷺ... وهكذا تختنق مرحلة أخرى من الإلحاد ومدة "الفترّة"، وتتهاوى في مهاوي مخالفتها الذاتية للطبع والفطرة.

لم يعيش الإنسان على مدى التاريخ من غير علم وإيمان، ولم تقم مدينة من غير معبد ومعبود. وقد مرت فترات جعل الإنسان أُمَّه ظلاماً وقتاماً بانخداره في مهاوي الحرمان من العلم والإيمان. لكن بعد كل سقوط، يستشعر تعلُّقه بالله في وجدانه من نقطة أعمق، فيتوجه إلى حال فوق الحال السابق تماسكاً ومعنىً وسرعةً وجذباً. فبقاء المدينة وعيشها في فراغ باعتبار المعبد والمعبود، أو الإنسانية في خلاء باعتبار العلم والإيمان، حال موقوت بمدة قصيرة لا محالة، في الماضي وفي المستقبل. فلن يُنتزع فكر المعبد والمعبود من قلب الإنسانية، ولن تنفصم عرى البشر من الله تعالى تماماً، إلى أن تطوى السموات كطي السجل للكتب وتلك الأرض دكاً دكاً... وتقوم القيامة. ولأن الوجدان منفتح بالأصل على الله تعالى، فإن ظلمة الآفاق وقتامها الطارئ أحياناً تمر سراعاً كالخسوف أو الكسوف... ويعقب الظلمات الضياء، والغروب الشروق... ويأتي يوم يقر فيه الزمان، ومن في الزمان، على الفلَّك الذي أمر به الله تعالى، وبأحكام الله القاهرة بالمناهج المعينة في الأخرويات، والمقررات المبيّنة سلفاً.

إن الأجيال الحاضرة تبحث في كل مكان عن ذاتها، وعالم وجدانها، والجنان التي أضاعتها. وإن توجهها منها بهذا الاعتبار وحده، يكفيها للعثور على بطلها وبلوغها خط الحق. أو كَسَتْ ترى الوجدان وقد قرّ في فلَّك طبيعته وفطرته؟ وأن الله يُسْتَشْعَرُ به في أنفاس الوجود والصورة واللون في كل شيء يسيل إلى نفوسنا من مداخل الأذان والعيون والأحاسيس؟

وزيادة على ذلك، بدأ الإلحاد يندحر مرة بعد أخرى، بل بدأ بالانحلال والانهيار، بتهافته وخواته الذاتي، بعدما سلل أو انتزع من الأشياء الروح والمعنى ليستغلها في الهوى والرغبة والأحلام... وإبان ذلك دخلت الأرواح الباحثة عن حقيقتها إلى سياق اكتشاف الذات مرة أخرى. فلا بد -في هذه الحال- أن تفتت تعلقاتنا إزاء الأشياء المعتادة رويداً، وأن تتعين المرجعية

بخوارق بوصلة الفطرة التي هي عنوان إحساسنا في القلوب بعجزنا وضعفنا، وبفضل استشعار "مركز الاستناد" و "مركز الاستمداد" في أعماق وجداننا... ومن ثم تسليخ إرادتنا عما يُضيق عليها، وتوجه إلى متطلبات اللاهية وأمانها.

وفي هذا السياق أيضاً، يُكسب الإيمان والعزم -وهما أهم حركية معنوية للنجاح- كل واحد قوةً روحه اللدنية، فتؤجج هذه القوة الروحية الآمال والإرادات، فتبدد وتبعثر شؤمهم وتهافتهم، وتعبّر بهم الجسور المتصلة بالصيرورة الذاتية ليصلوا إلى الله تعالى.

فإن أسرع وأقصر وأسلم طريق يوصل الإنسان إلى الحقيقة هو طريق الإيمان المجهز بالعلم والعرفان. لقد كسب الروح دائماً أعظم النصر وأعجبه بهذا الطريق. فحيثما افتُقد الإيمان غير المتغذي بغياء العرفان، احتلت القوة العمياء محل الحقيقة والحقوق... ولا مفر في مثل هذه الأحوال من مواجهة عنف القوة... فيكثر اللجوء إلى السلاح، ويأمر المال فيطاع، ولا يُسمع إلا صوت المعربد، ويُرغَّب إلى الرياء وتروج بضاعته. فمن المحال في هذه الأحوال الوصول إلى روح الوجود، والتطلع إلى ما وراء الوجود.

والحال أن حقيقتنا موصولة اتصالاً وثيقاً بروح اللاهية. ولاستشعار هذا الاتصال والإحساس بما تعدّ به هذه العلائق، يجب علينا أن نبذل توضيحات كثيرة. وجلي للبيان أننا إن لم نتخلّ عن السعادة الفردية والحظوظ الدنيوية والمقام والمنصب، بل حتى عن مشاعر فيوضاتنا المعنوية، فلا محل للكلام عن مثل هذه العلاقة، وهذا الاتصال. ومتى ما تحققت هذه العلاقة وهذا الاتصال، فستولد دنيا الغد التي يكون "الحق" فيها تاجاً فوق الرؤوس، وتلقى الحقيقة التوقير، ويُعدّ التفكير بالقوة وملاحقة المطامح عيباً وشيناً.

نحن نحسب أنفسنا في السبيل، قاصدي عالم مضيء كهذا، ومنذ سنوات طويلة. ومن دون تكهنات البحث عن أمارات الفجر حولنا، ومن غير

الانشغال بالأبحاث السحرية لأسرار دنيا الرياضيات، نقوم بتقييم كل شيء تشير بوصلة أرواحنا إلى صحتها وسلامتها حسب إرشاد الثوابت الإلهية، فنجد في استكشاف المشيئة الإلهية ونقاط التقائنا بما تعدنا به تلك المشيئة، وذلك بإرادتنا التي هي أعظم وسيلة تعلق بمشيئة الحق، ثم نتقدم سعياً في هذا السبيل كأبطال راهنوا بحياتهم ووجودهم كله وذلك من أجل إحياء نمط حياتنا المبارك.

وينبغي على كل واحد أن يقول لنفسه بمسؤولية فردية جادة: "اليوم يوم الفعال. فإن لم أمض للعمل، فلن ينهض غيري أيضاً" ثم يكر فرسه ليندفع إلى مقدمة الصفوف لرفع الراية... من غير أن يقع في منافسة أو غيره، فاسحاً السبيل لمن في يمينه ويساره في الحركة والسعي أثناء تقدمه لحمل الراية. إن الكثير منا قد أطفأ قلوبنا وصب ماء النار في عيون أرواحنا بقسم من أعماله، سواء بعلم أو بغير علم. في هذه المرحلة المظلمة، لم ينتفض أكثرية شعبنا ليحفز أنوار الحقيقة في جوهره، ولم يتوصل إلى الحركات المعنوية التي تعد من حيويات إحيائنا كالماء والهواء والخصب. وإنما نستطيع في حاضرنا أن نسير بالاتكال على الله تعالى واعتماداً على قوتنا الكامنة، وعلى روابطنا بالأخريات كافة. وإن نظرنا إلى الأشياء كلها بعين الروح، واستمعنا إليها بأذنه، وامسكنا بها بأيديه، وتقويمنا إياها بمحاكمة منفتحة على الإلهام، مرهون بإعادة النظر في هذه القوة الكامنة والروابط بالأخريات. ونلخص الموضوع بمقرب لنيازي المصري: "لا تبحث عن الروح والمعنى اللذين ينقلانك إلى الصيرورة في خارجك. التفت بجيدك واستمع إلى وجدانك، وابدأ من نفسك في السياحة نحو الصيرورة باستعمال عدسة ماهيتك".

ونحن نولي وجوهنا شطر أنفسنا

صار هذا العصر عصر معضلات تواجهنا ونعيشها، ولا زال. وهنالك معضلة منها تلهي عن بقية المعضلات لعمقها ومقاومتها للدواء والمعالجة واستعصائها وعاجليتها إلى درجة لا يمكن إهمالها. هذه المعضلة العملاقة هي إهمال شعبنا، وشبابنا خاصة، لقيمتنا الذاتية. فإنها إن لم تعالج قبل فوات الأوان وبما يكفي عمقها وبأيدٍ ماهرة كفوءة، فستواجهنا معوقات غير متوقعة، وقد تقع هزائم في مضمار النجاح، ويسودّ مصيرنا بمجاذب مستجدة نصاب بها في مفاجآت غير منتظرة.

إن الدمامل التي ظهرت أمس في صور الإهمال والغفلة واللامبالاة وضعف الكفاءة وأحلام التغيير، صارت أوراماً، ثم انتشرت في جوانبنا وأخضعتنا لنفسها، بمضاعفاتها السريعة والمتلاحقة... حتى استناحت خريفاً على كل شريحة من شرائح المجتمع، وسلبت منها ألوها الأصيلة. فكم مرة تزعزعنا بهذه الأمراض وعشنا سوء الطالع بتغلبها علينا؟ وكم مرة حسبناها حظنا الأسود المحتوم وضوينا وضميننا؟ وكم مرة صرفنا كلمات غير مناسبة ضدها تنفيساً لغضبنا -مع مناقضتها لأسلوبنا-، أو قمنا وقعدنا غضباً إذ لم نجد قولاً مناسباً عنها، فلم نزد على "لا حول ولا قوة إلا بالله؟" وفي خضم هذا التلاطم، اكتوى بعضنا في دوامة الأحاسيس القاتلة هذه، واكتفى بعضنا بفضح أخطاء الخائضين في "اللوثيات".

وكان ينبغي أن نحتضن أولئك بعرض حياة جديدة وندية في الأفق، واحترام حماسهم والتساهل مع هذيانهم ببعض المعاذير، من أجل امتصاص حرارة الشدة والغضب فينا، بل ومجاملتهم بالمداراة في بعض الأمور لإيجاد مناخ للتفاهم في الأمور المشتركة أصلاً... بدلاً عن أهام خط سيرهم

وتخطئتهم. والواقع أن مجتمعنا يتحمل في مبناه أكثر من فكر وفهم وفلسفة معاً. لذلك، نرى في طريق مغامرتنا "الملّية" الخاصة، آثاراً موضوعية لفرنسا، وتوقفاً عند المتلقّيات الألمانية، ومجارة لنمط الفكر الإنكليزي أحياناً، واليوم نجد نشوة مع الحرية الأمريكية، وفي كل الأحوال نضغط على السواتر الجانبية لطريقنا الرئيسي.

هذه المفاهيم والتلقّيات والفلسفات تؤثر تأثيراً سلبياً في ثقافتنا "الملّية". لكن يمكن تقييم مثل هذا التنوع في كل الأحوال بالغنى والثراء. المهم عندي هو أن يحافظ الشعب على قيمه الذاتية ودورانه في الفلك الذاتي. لكن الباحث للأسى أن المقتدرين على التقويم المفيد لهذا التنوع الثقافي، قد عجزوا عن التقويم والاستفادة، في الوقت الذي يُعد كل منها عنصراً ل طرح بديل مستخلص من تضاد الطرحين الآخرين. فصرنا نشبه أصحاب منحج أعرار يرون الطريق إلى منحج الذهب عبر الحجر والتراب فيحارون في مسيرهم إما بالانتهاء والتعلق بالحجر والتراب أو الوقوع في حرمان الدهول عن الأصل بظن ساحة المنحج التي يجولون فيها منحج الذهب بنفسه. وكم مرة حصلنا على مصادر للنور لم نستفد منها للتنوير، بل استحوذنا على النار واللهب منها وسبنا حرائق حيث نريد التنوير.

ومن العجائب أن فينا من إذا علم مقدار قطرتين استخف بالآخرين، أو استطاع أن يفكر مقدار قطرة ظن نفسه فيلسوفاً! وإن من مثل القوة وضع العقل والمنطق في الحرز والاحتياط وانطلق في طريقه تحت وصاية القوة العمياء، وإن السياسيين جعلوا غايتهم التحزب ورهنوا كل شيء بالأحزاب، فافتدوا كل شيء للتحزب، وعجزت فعاليتنا الاقتصادية والسياسية والثقافية عن الانفلات من شبك الدائرة الفاسدة لدور "التعارض والتساقط" بسبب الحسد والتنافس والبرم بالآخرين، وحتى الفتیان تضاربوا منذ نومة أظفارهم بأغصان الزيتون التي يحملونها أو بالدمى الناعمة المصنوعة من الريش، وكأها

عصي، وصرف الشباب اندفاع الحركية في أرواحهم إلى مجريات ضد "ملتهم"، فهدموا وخرّبوا روح "الملة" بدلاً عن تعمير اعتبارنا المهزوز وكرامتنا المنكسرة.

فلماذا كل هذا؟ لماذا لا نتحابّ وفي إمكاننا أن نتحابّ؟ لماذا لا نقيم حلّة وصدافة دائمة؟ لماذا لا نتقاسم الفرح والترح، والسرور والحزن؟ هل المجاهدة والغيرة على فتح القلوب أشد علينا من الكفاح في ميادين الحرب؟ أم أن أثن مضعة في الإنسان، وهو القلب، موصل الأبواب بوجه الحب والتسامح والاحتضان والتقبل والتقاسم، ومفتوحة للبغض والحقد والغلظة والبرم وانحصار الفكر؟ كلا... كلا! قسماً بالله خالق القلب إن أثن عمق وأغنى جانب في الإنسان، لا يمكن أن يبقى مغلقاً بوجه الفضيلة بهذا القدر، ولا مفتوحاً على اللوثيات بهذه الدرجة!

إن أعظم الفاتحين في الدنيا، بدأوا كل عمل، من أول وقفة للفتح، وأعنى القلب. ثم انتشروا من هذا الميناء إلى أصقاع الأرض في أربع جهات. فلولا أن دخلوا قلب الإنسان في الأناضول، لما تحقّق الظفر في "ملازكرت"... ولولا الإحساس بالأمل في خفقان صدور الفتيان الشجعان المحاصرين لاستانبول، لما أخذت المدافع المدوّية من خلف السور نار بيزنطة. نعم، إنها شبكة الشفقة والمحبة التي تظهر في قلوب المؤمنين كحسّ أو تعلق، ثم تسري في الصدور كلها وتملؤها، حتى إذا بلغت خيوطها أرضاً، هرع الناس إليها بقلوبهم، فتتقدم إليهم بدلال، وتستجمع نفسها بدلال، تروي لمن تضمهم إلى صدرها أساطير المحبة.

فمن أين نفذ فينا الحقد والبغض والعداء والبرم، ما دام تاريخنا بريئا من هذه الأمراض؟ لماذا يبغض بعضنا بعضاً، وننصب الفخاخ لبعضنا، ونفترس بعضنا افتراس الذئب؟ بل لماذا نحرم الحياة بعضنا على بعض؟ مع أننا منذ قرنين نكنّ إعجاباً وحباً عميقاً لفرنسا وألمانيا وإنكلترة وأمريكا، وأخيراً

لليابان؟! أم أننا مصابون بمرض في "الشخصية"؟ وإلا، لماذا نقول بلسان الحال "لا خير فينا! فلنلجأ إلى الأرواح الأجنبية!" فطرح القيم التاريخية لألف سنة في القمة كطرح القمامة، ضحية للأحلام والتخيلات؟

فلنستمر نحن في ابتكار معضلات عبثية من العدم والفراغ... ولكن إبان ذلك، نشأت أجيال عديدة بلا مستند وفلك وعرفان وفكر، وبدهي بلا مقود ولا ربان، في ظل الأهواء والرغبات وخيالات الأحلام! فاقدة ملاحظاتها الميتافيزيقية، غائبة عن صورتها وشخصيتها "المليّة"، هائمة عمراً في وهم أن تجد جواباً عن سؤال: "من أنا" في الاسمال التي استجدتها من سبع عوالم! فبقيت مضطربة في أسر مدّ المادة وجزرها، وعاشت بلا لسان ولا قلب، وخلطت أحيانا الدين بالأساطير، وفدت الأخلاقية في مراسيم الترحيب بالإباحية، وصبغت تلقّيات الفن بلون الشهوة، وحولت الشعر والموسيقى إلى رضاب يسيل من فم البذاءة... ثم وجدت نفسها في وسط الساحة القتالة التي يتصارع فيها خمسون نوعاً من هذه الأغلاط! وبدهي ألا تكون النتيجة إلا كهذه!

فلا غرو بعد ذلك أن يعتدي هذا الجيل على اليمين والشمال، ويستخف بماضيه، ويضيع ثقته بنفسه وثقة الآخرين به زيادة على تضييع إيمانه، ويتجرع آلام الحسرة على الحب زيادة على مشاعره الإنسانية. بل ويعهد بتربية الأبناء إلى الأيدي الأجنبية في هذه المرحلة، ويثبّ فكره كأطفال في المدارس الأجنبية... هم منكوبو البعد والقرب، القريبون من الأغيار، فهم أدنى إليهم من أنفسهم، وهم الذين يحسون بحرارة بعضهم لتداخلهم، لكنهم تقشع جلودهم في برد التواصل بينهم. هؤلاء هم الذين انخرق إيمانهم بألف شبهة وتذبذب، ثقتهم مهزوزة الأساس، آمالهم شذر ومذر، قلوبهم كوادٍ نضب ماء مجاريها... مشاعرهم الإنسانية في عهدة الحقد والبغض والعداوة، وقلوبهم الخاوية ساحة جولان المخاوف... مستسلمون لغيب الأهداف

والغيايات مَدًّا وجرَّراً، ومدحورون لمسافات غياهما قصراً وطولاً، آفاقهم
مدلّمة السواد، يعانون صعود الصعاب حتى في الهبوط! مسلوبو اللب
والعصارة كأهم قائمون بقشورهم وحدها... صاروا في حال مقزِّزٍ في كل
شيء!

والواقع أن نفخ الحياة في هذه الجنازة الحية عسير. لأن مثل هذا الجليل قد
صار غريباً عن حياة من نوع حياتنا، ومخالفاً لقيمه الذاتية. ومع كل ما فيه،
فإن واجب النهوض به ملقًى على عواتقنا. ونحن نؤمن بأنه سينتفض على
قدميه كسامع نفخة الصور، ويهتف بجدّ إقبال وجوده كرةً أخرى، عندما
تحيي المشيئة الإلهية إرادتنا. نعم، لن يكون عملاً يسيراً ملء الفجوات
والخلال المنفرجة في بناء المجتمع وإصلاح ما فسد وعطب بعد قرون من
الإهمال الوبيل. لكن ورثة الأرض لفكرٍ غيرٍ إدباره وإدبار المظلومين
والمغبونين الذين في وصايتهم إلى الإقبال مرات عديدة، سيجتازون محنة هذه
العوارض المهولة... فيقيمون جنات عامرة لغيرهم في جذب دنياهم.
وسيملاؤون الفجوات والخلال في المجتمع الذي أُمرُوا بنفخ الحياة فيه برحاب
التسامح، وسينظرون إلى قصور الآخرين بالعدسة المصعّرة التي تصعّر
خطاياهم أنفسهم، وإلى أخطاء الآخرين بتحكيم وجدانهم الذي يعترف
بأخطائهم، وسيرشدون إلى بدائل كثيرة لتخليص غيرهم من الأخطاء بمهارة
حكيم ماهر لا يُشعر مرضاه بمرضهم، ومن غير تأنيب لأرواحهم أو إيقاعهم
تحت ظلم الإشعار بأخطائهم.

ومن غير المتصور بدهاء أن يتغير كل شيء في مجتمع يتعرض منذ قرنين
إلى الانقلاب في القيم والتعويد على العوائق والمثبطات بمحملة واحدة من
خوارق الكرامات! فليس يسيراً أن يحل الإيمان محل الإلحاد، والانضباط محل
الانفلات، والنظام محل الفوضى، والأخلاق محل اللااخلاقية والعشق الإلهي
وحب "الملة" محل الشهوة. نعم، ليس يسيراً إزالة آثار السنين وانتزاع الإلحاد

الذي نصب عرشاً وسط سرادق الإيمان، واللامبالاة التي قلبت القيم الأخلاقية رأساً على عقب، واللامفيد الذي أثّرت وحشية شهيته بمنحه مكاسب على حساب الحياة المنضبطة، ثم إحلال القيم التي يريدّها الله تعالى ويوصي بها رسوله ﷺ محلها. فمنذ سنين تهمت المعايير التي تجعل من المجتمع مجتمعاً بحق، بل تحول المجتمع إلى ركام بشر، في العالم كله ونحن معه، بالأيديولوجيات المنحرفة، والتلقّيات العبثية، وهذيان التمرد والعصيان... فانْتَرَع حس المسؤولية من القلوب وسُقيت القوى الحيوية بأحاسيس البوهيمية. في هذه المرحلة المشؤومة التي جرحرت فيها خيالاتٌ وأحلامٌ تبدل كل يوم الكتل البشرية خلفها، ألقى من ألقى نفسه في تيارات مجهولة العواقب، فقالت أرواح منفلتة: "كم سنة وأنا مكتوف اليدين!" وقالت جيلاتٌ هوائية: "كم استحييتُ من أمور غير جديرة بالحياة! ليتني ما وقفت في حدود لا معنى لها!" وقال نفر عديمو المحاكمة: "تمردتُ وعصيتُ فنجوت وتخلصت" أو "اجتزتُ حدود الحرام والحلال فوجدتُ الحرية!"

والآن.. كرة أخرى يقع على كاهلنا، وعلى كواهل كل محب للوطن، حملُ إزالة هذا التبعر وتحرير قدرة النشاط الهامد فينا حسب آفاق فكرنا. نعم، ينبغي أن نسحب مرة أخرى إلى حرم الروح "المليّة" ونستعمل حق إرادتنا إلى آخر نقطة، وننطلق في المسير مرة أخرى كالحواريين والمسلمين الأوائل، بعزم سنّته سنين الظلم والغبن الطويلة، سائحين عمراً من هجرة إلى هجرة، يدفعنا عمق الشعور بضرورة وجود الإيمان والإذعان والعرفان حيثما وجد إنسان، فنعمل على حياكة ما بقي من حياتنا نقوشاً على نسيج الفكر والحركية لأهل الحقيقة الذين كسبوا رضا الله تعالى.

نحن نؤمن بأن الجميع على سطح الأرض سيُقبَلون بامتنان أيادي قلوب بهذا القوام والاعتدال إذا امتدت إليهم. فإن استطاعت الإرادات الناضجة والمستقرة، القادرة على حمل رايات ديننا ولساننا ووطننا ورسالتنا، أن تسيح

في الأرض بلدا بعد بلد، فسيُستقبلون في الأبواب التي يطرقونها باباً فباباً، كاستقبال "الخضر"، فترتشف الأفكار التي يقدمونها كإكسير الحياة. نعم، سينطلق هؤلاء إلى اللانهاية في صداقة موسى والخضر أينما حلوا، وبينون سداً لحماية الذين يترقبون ذا القرنين، ويرشدون المنزوين في المغارات أعماراً منذ قرون إلى المعابر الموفية "للانبعاث بعد الموت". ولعلهم يقدحون -أيضا- الشرايات الأولى لفكر نهضة كبرى هي أشمل وأوسع نهضة تهفو إليها الأعناق منذ قرون...

فهرس

٥	تقديم.....
١٠	دنفا فف رحم الولادة.....
١٣	وارثو الأرض.....
١٨	أثناء استكشافنا خط السفر.....
٢٤	نحو عالم الغد.....
٢٩	نحو عالمنا الذاقف.....
٣٤	ونحن نقفم صرح الروح.....
٤٥	الشورى.....
٥٧	الحركفة والفكر.....
٦٣	إنسان الفكر والحركفة.....
٨٠	نحو عالمنا.....
٨٥	مهندسو الروح الربانفون... ..
٩١	الشعور بالمسؤولفة.....
٩٥	من الفوضف إلى النظام - ١.....
١٠٠	من الفوضف إلى النظام - ٢.....
١٠٤	القضفة الكبرى لشعبنا.....

- الأجيال المثالية ١٠٩
- "المعينية" إلى حدٍ ما ١١٥
- فلسفة الحياة عندنا ١٢٠
- أجيال الأمل - ١ ١٢٨
- أجيال الأمل - ٢ ١٣٢
- ونحن نولي وجوهنا شطر أنفسنا ١٣٦

وَنَحْنُ نَقِيمُ صِرَاحَ الرُّوحِ

إن هذا الكتاب النفيس الذي لم نقرأ مثيلاً له يرسم خارطة دقيقة وتفصيلية للكيفية التي يمكن بها إقامة صرح العتيد من وهدهته. إنه يجوب القلب البشري ويأتي بلبنات البناء من مقالعه، ويجوس خلال الروح ويعود بفلذاتها لتكون الحجر الأساس فيه، ولكي يعلو شامخاً بحيث يراه العالم كله من أي جهة نظر إليه، ويجد في ظله الأمن والأمان. وخير من يقوم بهذه المهمة الإيمانية الحضارية هو جيل الطهر والإيمان، الذي لم تتلوث روحه، ولم يتنجس قلبه.

والكتاب طافح بالأمل في مستقبل قيام هذا الصرح، وهو حين يقوم فسيكون أعجوبة من أعاجيب هذا العصر، يعلو على كل صرح، ويسمق فوق كل حضارات القلب والروح في الماضي والحاضر.



مُحَمَّدٌ فِي اللَّهِ كَلِمَاتٌ

وَنَحْنُ نَقِيمُ
صِرَاحَ الرُّوحِ

ISBN 975-315-162-4



9 789753 151627



دار النبيل